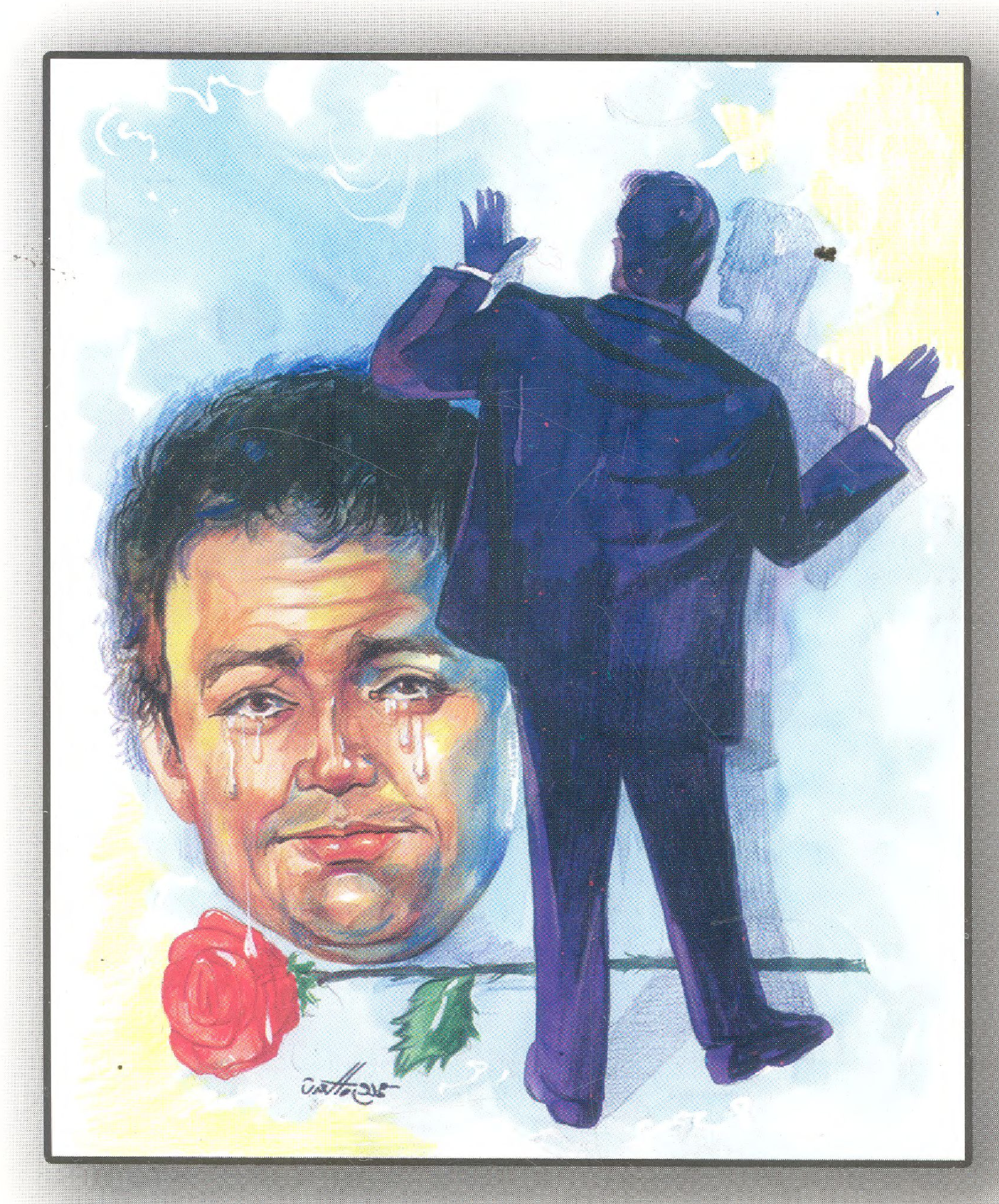
د. عادل صادق

سقوط رَجُل



مؤسسة طيبة للنشر

مؤسسة حورس الدولية

سقوط رجل

دكتور

عادل صادق

سقوط رجل

[مؤسسة حورس الدولية]

الناشـــــر :

مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع

١٤٤ ش طيبة ـ سبورتنج ـ الإسكندرية.

ت/ فاكس : ٠٣/٥٩٢٢١٧١ ـ ٠٣/٥٩٣٠٥٩٨

الطبعـة الأولـى

(٢٠٠٥)

اسم المؤلف : د/ عادل صادق.

اسم الكتاب : "سقوط رجل".

مراجعة لغوية : عبد الرحمن الجبالي.

إخراج فني : سعيد شحاتة.

رسوم الغلاف : ممدوح طلعت.

كمبيوتر جرافيك : أحمد أمين.

مدير النشر: : مصطفى غنيم.

رقم الإيداع : ٢٠٠٤ /١٨٤٤٦

الترقيم الدولى : 977-368-042-8

متعة الحياة أن تستمتع بالجمال،،،

وفخر الحياة أن تصنع الجمال،،،

وزهو الحياة أن تكون جميلاً،،،

"المؤلف"

محتويات الكتاب

الواجد والموجود

المعنى سبق في وجوده الأشياء، حتى الكون لم يك شيئاً لأن معنى بليغاً قد سبق وجوده، ومعنى هذا الكون هو الخلق والقدرة، والمعنى الأعظم هو الواجد والموجود، والموجود لا يستطيع أن يحيط بالواجد، ولكن رحمة الواجد في أن جعل نفسه قريباً من قدرة الموجود على التفهم والاستيعاب، فجعل الواجد نفسه في صورة معان يدركها الموجود بعقله وقلبه، فكان هو الرحمن الرحيم إلى آخر تسعة وتسعين معنى اتصف بها.

فأحب الموجود الواجد وعاش في ظل معانيه ينعم بحياة أساسها الحب والصدق، ولم تطلب الحياة إلا حينما أدرك المعنى من وجوده هو ذاته، وبذا أصبح للموجود معنى؛ معنى قصده الواجد، أي أن معنى الموجود سابق على وجوده.

وحين نظر هذا الموجود حوله فرأى الأشياء التي أذهلته تطلع إلى الواجد في حيرة، فاطلعه على الأسماء، والاسم معنى، الاسم رمز، الاسم مغزى، ولذا خطا الموجود أولى خطواته على الأرض بفضل المعرفة التي استقاها من الواجد.

وأدرك الموجود حين نضج أن المعاني ليست بالضرورة تتجسد في أشياء مادية، وبخاصة المعاني الجليلة، فالإعجاب قد يكون بوجه امرأة

جميلة يجسد معنى الجمال ولكن التجسيد الجليل للجمال يكون من داخل هذه المرأة، يرى الرجل امرأة فتصرعه غرائزه من هول جمالها وحين يقترب مــن داخلهــا يشعر وكأنه في محراب النقاء فيتجاوب داخله بفرحة عميقة مذهولاً بجمال أسمى.

والأمانـــة قــد تكون مع إنسان ما في نطاق عمل أو مشاركة وهي معنى جميل يجسد درجة من درجات السمو في نطاق علاقة إنسان بإنسان آخر، فتؤدي الأعمال على خير وجه فيما يعود على الطرفين بالفائدة، لكن المعــنى الجليل للأمانة هو ذلك الوثوق بوجود الخير وشيوع الفضائل في داخل إنسان متعه الواجد بأحسن تكوين، وهنا يتجلى جمال الإنسان الحقيقي في حبه للخير والفضيلة.

أما معنى الصدق فهو إعلان الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة فينتشر الــنور، فــنرى بوضوح ونعدل المسار ونصلح الأخطاء فتعم الفائدة، أما المعــنى الجلــيل فإنه معنى أن يكون الإنسان نفسه، أي ذاته الحقيقية، أن يكــون علــى طبيعــته، واثقاً شجاعاً، وبذلك يتاح لنا أن نطلع على جماله الحقيقي أي حجم الخير داخله، وبذلك نطمئن، يزول الشك، ننام بعمق.

وللجهاد أيضاً معنى عظيم، إنه الدفاع عن الأهل والأرض أي الذود عن الوطن، وما الوطن إلا أهل وأرض، وهو معنى أيضاً ينضم إليه معنى الشــجاعة، ولكــن المعنى الأعظم للجهاد أي المعنى الأجل هو الدفاع عن الحــق، الحق بمعناه المجرد، الحق المستمد من الواجد الحق، فالأصل هو الحــق، وأصــل الجهــاد هو حماية الحق، الجهاد مع النفس، والجهاد ضد الشر، ولابد للشر أن يندحر، ولابد للحق أن يعلو وأن ينتصر.

وارتفـــاع راية الحق هو تحقيق لمعنى أو لفكرة وجود الخير والشر معاً في صراع داخل الإنسان وعلى وجه الأرض بين البشر، وتكون فرحة الإنسان غامرة بانتصار الحق، أي انتصار الخير على الشر، أي الانتصار للواجد، وهنا يتأكد للإنسان أن الواجد قد صدق وعده، فتفيض عينه بالدمع، ويسجد ويقترب.

والشر مصدره البشر، أو بعض من البشر، ومعنى الشر هو الفساد، والإفساد، هو إشاعة الظلام والظلم، وإهدار الفضيلة ونصرة الرذيلة وسلب الحقوق وكسر النفوس وحط الكرامة ونشر القبح وتشويه الجمال، والمعنى الأعمق هنا يكشف عن البعد الغريزي في الإنسان أي عن الجانب الدوني، ولقـــد خلق هذا الجانب في الإنسان ليترك له المجال لمجاهدة الهوى ولقهر ضـــعفه ولدحـــر نزواته ولكبح عدوانيته ولنبذ ظلمه وبغيه، ولكن الغرور يجعـــل الإنسان يهبط، والافتتان بالدنيا يميل بالإنسان ناحية الفساد، والغفلة تدفـــع الإنسان للبغضاء والعداء، وقوة المادة وسحرها تجعله ينتصر للباطل ويزهو بقدرته على الخداع والتضليل والتزييف والغش.

أمـــا الخير فمصدره أيضاً البشر، أو بعض من البشر ومعناه الفعل الطيب الذي يعود بالنفع على الناس، معناه إعلاء الحق ونشر الفضيلة وبث الخلق القويم.

هـــذا هـــو المعنى المادي المباشر للخير أما باطنه النوراني، المذهل لجمالـــه، المبهر بضيائه فهو الرحمة، وباطن الرحمة الحب، وإن شئت أن تجمـــع فتقول الرحمة والحب وإن شئت أن توجز فتقول الحب، ففعل الخير هـــو حـــب، وفعل الحب هو خير، والحب هو أقصى لذة معنوية يشعر بها الإنســـان، إنه التحليق إلى اقرب نقطة من الواجد، التحليق إلى الدرجة التي

يـتحملها الموجود، إنها الحالة التي يشعر فيها الموجود بحب الواجد له فإذا شـعر الموجـود بحـب الواجـد له فرح واطمأن وشعر بالحب تجاه كل الموجـودات، وفضّـل الخـير علـى الشر، فرحم وعطف وآثر وتصدق وضـحى وسـاعد وتفـانى وأخلص وصدق وأوفى وبشر وعذر واعتذر وتسامح.

وهذا معناه أن الخير يحمل كل المعاني الجليلة مجتمعة، فهو فيض مباشر من نور الله يستقر في الكيان البشري مثلما يستقر في شجرة مثمرة، وارض طيـبة ونهـر عذب وهواء عليل وقمر منير وشمس مضيئة وليل سـاحر ونهـار واحد وفجر مهيب وزهرة ذات لون بديع ورائحة مبهجة، مـثلما يستقر في وجهك يا حبيبتي وينتشر على أرضك يا وطني ويفرض وجوده بينكم يا أهلي ويعلو فوق رؤوسكم يا أصحابي.

إنه الخير الذي يجعلني يا صاحبي لا أعرفك شخصياً ولكنني أحبك، وأنـا لا أعـرفك شخصياً لأنك تحولت إلى معنى، ولقد كنت بشراً موجوداً ولكـنك تحولت إلى معنى، معنى للخير، وذلك حين جدت بروحك لوطنك لـيس انتصـاراً لوطنك فحسب ولكن انتصاراً للحق، انتصاراً للخير، أنت أعظم موجودات الواجد لأنك حققت أمل الواجد فيك.

لأنـك تحولـت إلى معنى، لأنك استهنت بتكوينك المادي وانتبهت لتكويـنك السـامي العالي، فضحيت بجسدك، فجرته في داخل صميم الشر لينهار وليتفتت وليتبعثر أشلاء وحطاماً، وصعدت روحك الطاهرة عالية في السـماء، وسـتظل ترتفع وترتفع لتصل إلى أقرب نقطة من الواجد. وهنا تحـتفل بـك السماء وترحب بك ولن ينادوك باسمك في السماء، ليس مهماً اسـمك، فأنـت معنى، أنت رمز، والجهال في الأرض يبحثون عن لحمك

ودمك وعظامك، وذلك ليقتلوك.. ها.. ها.. ها.. إنهم أغبياء، إنهم يعتقدون أنك شخص واحد إذا تخلصوا منك استراحوا واتسعت الدنيا لشرورهم، إنهم لا يعرفون أنك الآن لم تصبح كائناً من لحم ودم وعظام، بل أصبحت رمزاً للخـــير، أصـــبحت قدوة لملايين غيرك، ملايين تحولوا إلى معان وهم في شوق إلى أن يتخلصوا من أجسادهم، في شوق إلى أن يفجروا أجسادهم في قلـــب الشـــر فيـــتحول إلـــى أشلاء وتراب ودماء فاسدة تأبى الأرض أن تتشربها.

مـــا أعظم البشر حين يتحولون إلى رموز جميلة ومعان جليلة، ما أعظم البشر حين يجسدون الخير.

ما أعظم الإنسان حين يكون ظلاً للرحمة وطيفاً للحب.

وتمضـــي عجلة الزمن، ويموت بشر، ويخلق بشر جُدُد، ولا يبقى مـــن الإنســـان إلا المعـــنى، أو يصـــبح رمزاً، نوراً يهدي، وفكراً يضيء وتمضـــي رســـالته من جيل إلى جيل، وقد ينسى الناس مكان رفاته ولكن يرونه علماً يرتفع إلى عنان السماء، وقد تمحو ملايين السنين اسمه وحينئذ يتحول إلى قيمة مطلقة.

نصـــيحتي، لا تبحثوا عنه فهو غير موجود بلحمه ودمه وعظامه، بل هو الآن معنى بليغ، وربما تعداه ليصبح قيمة مطلقة وهيهات أن تنجح قوى الشـــر فـــي هزيمة قيم مطلقة وهيهات أن تنجح قوى الشر في هزيمة قيم الخير التي يتولى حمايتها الواجد.

الكل في واحد

كـــل شيء في الحياة له حركته الخاصة، وكل حركة يحكمها قانون لتوفي بالغرض منها، فتتحرك المياه من الأرض إلى السماء، وتتحرك نفس المياه من السماء إلى الأرض، هناك قانون للحركة من أعلى، وهناك قانون آخـــر للحـــركة إلـــى أسفل، وإذا تعطل قانون توقفت الحركة، وتوقفها هو المـــوت، هـــذا هو تعريف الموت، اللاحركة، فإذا تعطل صعود الماء من الأرض إلى السماء، وإذا تعطل هبوط الماء من السماء إلى الأرض، ماتت الأرض وكل من عليها.

ويموت الإنسان حينما تتعطل حركة الدماء المشبعة بالأكسجين من القلـــب إلى الأنسجة عبر الشرايين، وحين تتعطل عودة الدماء من الأنسجة إلـــى الـــرئة عبر الأوردة لتتم تنقيتها وتحميلها بالأكسجين. وحين تتوقف حـــركة الدماء تتوقف كل الأجهزة عن العمل، وحينئذ لا تجد الروح مبرراً لســـكن هذا الجسد فتغادره، وهنا يعلن موت هذا الإنسان إذ لا يصح لجسد حـــياة بعـــد أن تـــتركه الروح، ولا أحد يعرف من أين البداية، هل ترحل الروح أولا فتتوقف الأجهزة أم تتوقف الأجهزة فترحل الروح، أيهما يعطي الشرعية لوجود الآخر، أيهما أسبق في الوجود، الروح أم الجسد؟ وإذا كان الجســـد يظـــل معنا في الأرض جنباً إلى جنب مع الأحياء، إلى أين تذهب الروح؟ كل ما نعرفه أنها تصعد إلى بارئها، وعند هذه النقطة لا يوجد لدينا أي معلومـــات، لكـــن الـــذي لا شك فيه أن هناك مكاناً خاصاً تتجمع فيه

الأرواح الصاعدة منتظرة يوم البعث لتعود إلى الأجساد ليبدأ شكل جديد من الحياة.

وإذا كانت الروح تصعد فهذا معناه أنها تظل حية بعد موت الجسد، وهـذا شـيء منطقي لأن الروح ذاتها هي مصدر الحياة، إذن الموت هو مـوت شكلي فقط، موت مادي، لكن يظل الإنسان حياً في صورة أخرى، وهـي صـورة الروح، لذا فالجسد هو الوعاء الممكن ليوجد الإنسان على الأرض، فـإذا انتهى دوره على الأرض فلا يوجد مبرر لوجود الجسد، لذا فالإنسـان لا يمـوت حقـيقة، بل يظل في صورة ما كمرحلة وسطى بين حياتيـن، حـياة انتهت وحياة قادمة لا نعرف متى، لكنها قادمة بكل تأكيد. ومن أين جاء التأكد من أن حياة أخرى تنتظرنا بعد الموت؟

هـذا التأكد مصدره حياتنا الدنيا التي نعيشها في هذه اللحظة، فهي حياة لها معنى، ولا يمكن أن تفضي حياة لها معنى إلى لا شيء، وهي حياة لهـا معـنى لأنهـا أسست على قوانين ليكون هناك نسق أو نظام أو شكل معين، ولتمضي الحركة بشكل منطقي، أي لا عبث، لا عشوائية، بل هناك طـريق مرسـوم ينتهـي إلى هدف. والشيء الوحيد الذي يجعل الإنسان متشـبثاً بالحـياة هو أن لها معنى، وهو يدرك هذا المعنى، ويدرك أن له نصيباً في تحقيق هذا المعنى، أي أن الذي يسهم في تحقيق معنى الحياة هو الإنسان ذاته، فالحياة على الأرض هي حركة الإنسان على الأرض، سعيه، عمله، عاطفته، فكره، إبداعه، فالأرض هي ملكه، هو قائدها، هو حارسها، هو معمرها، لأنه هو الخليفة، خليفة الله في الأرض.

ولذلـك يود الإنسان لو أنه عاش ألف سنة، والإنسان يكره الموت لسـببين، أولهمـا لأنه يحرمه من أحبائه، وثانيهما أنه لا يدع له الفرصة

للاستيعاب الكامل للحياة والاستمتاع بها والإسهام في تحقيق رسالة، يمضي الزمــن بســرعة دون أن ندرك أنه يمضي رغم أننا نحتفل بأعياد الميلاد، ونحيــي ذكــرى أيــام مهمة في حياتنا، ونفاجأ بأننا كبرنا، ثم هرمنا، ثم انحنينا، ثم تساوينا مع الأرض، إلى أن نغوص في أعماقها، ونصبح جزءاً منها، ويتحقق قولُ إننا منها وإليها. ورغم قِصَرها إلا أنها ممتعة في بعض أجــزائها، حتى لحظات الألم ما هي إلا مبرر لنجدَّ في البحث عن السعادة أو لنصنعها بأيدينا.

والســعادة لها صورٌ كثيرة، بسيطة ومركبة، مثلاً راقب وردة وهي تــنمو، أو اروها بيدك، تابع مراحل تطورها، تأمل التكوين الجمالي البديع لأوراقهــا ودرجات اللون المختلفة وهي تعمق يوماً بعد يوم إلى أن يكتمل النســق شــكلاً ورائحة، وهنا ينبثق المعنى، ما معنى أن يخلق الله الورود والــزهور؟ المعــنى هــو مــنح سعادة للإنسان ليحب حياته على الأرض ويستمر فيها.

والسعادة تتحقق حين تستثير الوردة مراكز الجمال في مخ الإنسان، فيشــعر بالنشــوة، الجمــال هو نوع من الغذاء الإنساني، صنع خصيصاً للإنسان تكريماً له، وتأكيداً على أنه أرق المخلوقات.

وهــناك سعادة أخرى حين تبدع شيئاً جميلاً ينبثق منه معنى بليغ، حيــن تكتب شعراً أو ترسم لوحة، أو تصوغ لحناً، أنت هنا صانع للجمال، مــنحك الله بعضاً من قدرته وهو أن تخلق وتصور وتجسد، وبذلك تضيف إلى مخزون الجمال، وبذلك تسهم في تصدير السعادة للآخرين، وهذا معنى بليغ آخر تصبح سعادتك في إسعاد الآخرين، وهذا شيء لا يقوى عليه إلا إنسان خلاق.

وهناك سعادة أخرى وهي اشتباكك مع إنسان آخر في علاقة، وما أمتع وجود هذا الإنسان الآخر في حياتنا، إنه المعنى كله، إنه هو الحياة بعينها، إنها السعادة المطلقة، إنها التسلية والتسرية والتنسية والترويح وزوال الغربة والائتناس، والتخفيف من الهم، ونصف زوال الغم، وبعض تقليل العبء والاستناد والارتكاز، لا طعم للحياة بدون الآخر، صديقاً، أو زميلاً أو جاراً، أو حتى عابر سبيل، وثمة سعادة لها طعم آخر وهي التلاحم وليس مجرد اشتباك مع إنسان من الجنس الآخر. إنسان واحد بعينه، اختيار مطلق محض، فهو سكن للروح، وهو المظلة الحقيقية للمودة والرحمة، وهو غاية الحياة ومنتهاها وجدواها، الأمن والأمان، الطمأنينة والسكينة، السلام والاستقرار، الثبات والديمومة، رفيق الطريق والعكاز حين المحنة، شريك السرور والهناء وماسح الدموع ومخفف الآلام، ومن خلاله ومعه تتحقق لذة الملامسة والقبلات وممارسة الحب، وتلك فرحة للجسد، تدفعه إلى حب الحياة والتشبث بها، والحفاظ على رونقه وجماله وحيويته، وجاذبيته، والتعلق المجنون بالشباب، لكن هيهات، ثم هيهات، إذ لا شيء يوقف عجلة الزمان، فالزمان يتحرك وهي حركة إلى الأمام، وحركة الزمان ذاتها هي دليل حياة، دليل على أننا ننمو ونكبر وننضج، وكلما نضجنا، سبرنا الغور أشمل وأعمق، فهمنا لماذا جئنا وإلى أين نسير، وماذا بعد ذلك.

إنه الإيمان عن فهم، إنها رؤية الخالق المتجلية في القوانين التي تسّير الحياة، وبذلك تكتمل الصورة وتهدأ النفس الحائرة ويثبت العقل الشقي، ويتجلى المعنى،وارى نفسي متناهياً في الصغر، ومتناهياً في الكبر، صغيراً بالنسبة لحجم الكون الهائل، غير المحدود، وكبيراً في حجم ما أملك

مـــن عقل، ذلك العقل القادر على استيعاب وجود الخالق، وبذلك يكون هذا العقل في حجم ذلك الكون الهائل اللامتناهي، وهذه هي سمة العقل البشري، وهـــذه هـــي وظيفته الأولى والأساسية أن يدرك الخالق، وهو إدراك كلي شـــامل نـــابع من رؤية كلية شاملة، إذ لا يكفي أن تدرك الله في جزئية بل يجـــب أن تـــدرك هذه الجزئيات في تكاملها وتواصلها وتشابكها وتفاعلها لتستنبط منها القوانين الثابتة الصارمة التي يتحقق من خلالها معنى كلي.

فلا يكفي أن تدرك الله في خلقه للنملة التي تزحف وتكاد لا تراها، ولا يكفـــي أن تدركه في وردة أو سنبلة قمح، ولا يكفي أن تراه في حركة عضـــلة القلب وهي تدفع بالدم إلى كل خلية في الجسم، أو في عمل الكلى، كالمصـــفاة، وهي تحجز الماء والمعادن وتمنعها من النزوح مع البول، ولا يكفـــي أن تـــدرك الله فـــي تعاقب الليل والنهار، أو في نمو جنين من بين أحشـــاء امـــرأة أو في زرع حب في قلب أم، أو استجابة ثدي لنداء طفل جـــائع، ولا يكفـــي أن تـــرى الله في معمل العسل الكائن في بطن نحلة أو معمـــل اللبـــن الكائـــن فـــي بطن حيوان ثديي بتلك النسب الغذائية الدقيقة الضـــرورية لحـــياة ونمو مخلوق وليد، ولا يكفي أن تدرك الله في التوازن بين بلايين المجرات والكواكب التي تجوب الكون.

الله غـــير موجود في شئ واحد من هذه الأشياء، الله الحق الحقيقي ينبثق من علاقة هذه الأشياء بعضها ببعض، لأن بينها تكاملاً، لأنها مربوطة بعضـــها بـــبعض، فحركة النملة التي لا تكاد ترى مرتبطة بحركة الأرض وحـــركة الماء وحركة الكواكب، ونمو الزرع وتخليق جنين وحركة هواء، ووجـــود نسب دقيقة محسوبة من العناصر في الغذاء والماء والهواء تحفظ لكل المخلوقات حياتها.

إنهـــا حركة واحدة يخضع لها كل شيء، إنه قانون واحد يحكم هذه الحـــركة، لا يمكـــن أن تستقيم أو تستمر حياة شيء دون التصاقة بالأشياء الأخرى، كل واحد متكامل.. أحد.. صمد.. هو الله ..

حديقة الورد

خلق الله الفرح ليحب الإنسان الحياة.. فحب الحياة والفرح قرينان.. وأنت في حالة الفرح يخف وزنك فتطير لتحضن الدنيا كلها بعينيك وتراها غايـــة في الحسن تسر الناظرين وتفعم قلب العاشقين لها.. ما أجمل الحياة فـــي ظـــل الفرح.. وما أمتع الدنيا في ظل العشق.. والمتعة تكون للروح والجسد معاً.. ترقص الروح وينتشي الجسد.. تسعد الروح بأنها تسكن ذلك الجسد ويسعد الجسد لأنه وعاء لهذه الروح.. وهذه هي الحياة.. وما أجمل الحياة.. أنا حي معناها أنني قادر على الفرح.. وأنا فرح معناها أنني قادر على العشق.

مـــن يدخـــل حديقـــة الـــورد يسر خاطره وينشرح صدره.. اللون والرائحة وروعة التكوين.. قدرة الخالق تتجلى في أبسط مخلوقاته.. مجرد غصـــن وأوراق إلا ان النســـق الجمالي يذهل العقل ويشغف القلب ويدعو للســـجود أن سبحان الله.. والراحة النفسية تعم لا إرادياً لا تفرق بين عالم وغافل ولا بين مؤمن وعاص.. إنها الرحمن بعينها.

غـــير أن المتأمل بعمق يرى جانباً آخر في حديقة الورد. فالأشواك يفـــوق عددها الورود.. تجرح وتدمي.. والوردة لا تموت فقط بانتزاعها، وإنمـــا تشيخ أيضاً على غصنها فيزول عنها جمالها وتتهاوى ذبولاً وجفافاً وتسقط فيبتلعها الطين.

ومن بين أحضان وردة تموت ينمو برعم جديد فإذا الموت والحياة يجتمعان في آن واحد.. بل وهما متلاصقان يقود أحدهما إلى الآخر.. من الموت تولد الحياة.. والحياة تفضي إلى الموت.. تعاقب يشبه حركة الليل والنهار.. والأمر ليس سهلاً إذ يتم وفق أعقد العمليات الكيميائية التي ينتج عنها حياة.. والحياة نماء وازدهار واكتمال.. ثمة روح تسكن الوردة الحية.. روح مثل تلك التي تسكن الإنسان فتجعله ينمو ويتحرك ويفكر ويشعر.. الروح سر الحياة ومصدر الحركة.. وفي وقت محدد تتوقف تلك العمليات الكيميائية إيذاناً بمغادرة الروح فتتوقف الحياة والحركة معاً.. ثم يكون الاندثار.. إن حديقة الورد محملة بأجل المعاني.. وأبرز المعاني أن الجمال يخرج من باطن الأرض.. من الطين.. اللون والرائحة والنسق البديع.

ثم يبرز معنى آخر وهو التعدد والاختلاف فلا تمل العين ولا يفتر الفؤاد ولا ينعكس العقل ولا تعتاد الأنف.. فالبذور تحمل جينات مختلفة.. وكل مجموعة جينات مختصة بوردة بعينها ذات لون خاص، وذات رائحة خاصة وذات شكل مختلف..

وفي النهاية ذات أثر نفسي معين.. إن كل وردة لها رسالة.. لها دور.. لها معنى.. إن كل وردة هي رمز لشيء ما.. لا شيء يخلق عبثاً.. فأنت حين تمر بحديقة الورد يشملك شعور معين إزاء كل مجموعة ورد.. فتنتقل من إحساس إلى إحساس.. تختلف حالتك النفسية أمام كل مجموعة.. إن الورد يحادث الإنسان ويحاكيه.. إنه حوار متبادل.. كل منهما يقول شيئاً للآخر همساً وسراً.. وهو حوار قد يكتنفه غموض وإبهام لأنه حوار غريب.. حوار بين الإنسان والورد.. ثم ينتقل الإنسان إلى مجموعة أخرى

فيبدأ حواراً مختلفاً.. والورد هو الذي يفرض نوع الحوار وكنه الكلام.. الورد هو الذي يثير الأفكار ويحرك المشاعر عند الإنسان.. الورد هو الذي يأخذ المبادرة.. كلام الورد كالموسيقى.. تناغم صادر عن امتزاج اللون بالراحة بالنسق.. وكأنها موسيقى قادمة من السماء فيسمعها الإنسان بروحه لا بأذنيه.. الموسيقى تتكلم.. وهو كلام غاية في التجريد.. فيتجاوب الإنسان بكلام مقابل.. ولكنه أيضاً كلام في غاية التجريد لا تسمعه أذن ولكنه يأتي في صورة مشاعر وأفكار..

وقد يتجاوب الإنسان بلحن مقابل يعبر عن حالته الوجدانية والذهنية.. لحن من إبداعه أو لحن ارتبط بذكرى.. فحديقة الورد هي حديقة الإبداع والذكريات.. وجميعها هي ألحان حب.. فيقف الإنسان أمام وردة يختارها ضمن العديد من الورود نوعاً وكماً ليقول لها أنت في مثل جمال حبيبتي.. فترد الوردة عليه وتقول أشهد أن حبيبتك هي أجمل مخلوق على وجه الأرض.. وأمام وردة أخرى ليقول الإنسان لها أنت أجمل هدية لحبيبتي.. فترد عليه الوردة: سأنقل لحبيبتك صدق مشاعرك وأقول لها كم أنت تحبها.. ما أسعدني أن أكون رسول حب.

وأمام وردة أخرى بعينها يقول الإنسان: أنت تذكرينني بحبي القديم.. وإذا بنسمة شجن محملة برائحة الذكريات تلمس كيان الإنسان بوداعة وهنا تزدهي الوردة وتقول: إن ذكرى الحب لا تموت وأنا ذكرى الحب.

وأمام وردة أخرى بعينها ذات درجة معينة من درجات اللون وذات رائحة شديدة الخصوصية ثم إن لها شكلاً قد يبدو غريباً يقف الإنسان حائراً لحالة من القلق الرقيق انتابته فترد الوردة على مشاعره قائلة: أنا وردة

الحيرة والقلق لأستثير قلوب العاشقين وأنزع النوم من عيونهم لينتبهوا فالحب مثل الورد يحتاج لعناية واهتمام.. يحتاج إلى حنان وأمان.

ويهرب الإنسان إلى وردة أخرى فإذا حزن أكثر رقة يغلف قلبه ويحاول أن يجد منفذاً إلى داخله.. إنها وردة توحي بالوحدة.. هي والإنسان معاً دون ثالث.. وتقول الوردة للإنسان لا تبتئس.. أنا التي سأؤنس وحدتك.. أنا رمز للمعاني الجميلة التي تبحث عنها ولا تجدها.. لا يحصل الإنسان على كل ما يريد من الحياة. بعض حصادنا في الحياة هو الحلم والتمني.

كتب على إنسان ما أن يظل وحيداً.. ولا يخفف من ألم وحدته إلا الورد لأن الورد يتكلم ويغني ويتنفس ويوحي بأجل المعاني.. الورد يبعث الحياة في البيت الخاوي الذي رحل عنه الأحباء أو الذي لم تطأه قدم حبيب.. الورد بديل الحبيب.. إذا لم يجد الإنسان إنساناً يحبه فليحب الورد.. وإذا فقد الإنسان إنساناً يحبه فليملأ مكانه بالورد.. الورد يؤنس وحدته.. الورد قادر على تبادل الحب.. ممارسة الحب مع الورد هي ممارسة روحية.. وياللعجب من صنع الله للإنسان.. فبعض الناس تمارس الحب وهو ليس حباً مع حيوانات وبعض الناس تمارس الحب مع الورد.. وبعض الناس تمارس الحب وليس حباً مع البَغِيّ وبعض الناس تمارس الحب وهو حقيقي مع الحبيب تحت مظلة الورد.

والورد الذي يؤنس وحدتنا هو ورد يوحي بالأمل لأنه يؤكد أن الحب موجود.. أن الحب حقيقة، وبناءً عليه فالحبيب سيأتي يوماً ما.. إن وجود الحب.. سابق على وجود الحبيب.. فإذا وجد الحب فإنه يحمل معنى احتمال مجيء الحبيب.. ما دام هناك ورد فهناك حب.. وما دام هناك حب

فهـناك حبيب. وحبوب اللقاح هي رمز للحياة والحب.. فهي وسيلة الورد فـي ممارسـة الحب.. وهي أشبه بالقبلات البريئة التي تحط الحبوب على قلـب الورد.. مجرد قبلة يبزغ منها برعم.. البرعم هو دليل الحب ودليل الحياة.

ورغـم قدوم الشتاء فإن البستاني لم يكف عن العمل.. فالحديقة لا تنضـب في الشتاء.. وهذا البستاني ليس فقط خبيراً في الورد بل هو أيضاً خبـير في النفوس وخبير عطور.. وخبير في ألحان الورود ولغة الزهور وحوارات الطيور.. ولهذا فهو أكبر خبير في العشق.

جاءتـه فـي الصباح المبكر سيدة طاعنة في السن تقوس عمودها الفقـري بفعل سبعين عاماً حملتها على ظهرها.. طلبت ورداً.. فهم الخبير مـن عينـيها أنها تعيش وحيدة.. مات عنها زوجها بعد أربعين سنة حباً.. استمرت في الحياة من بعده بفضل الورد.. إنها لا تستطيع أن تعيش بدون الـورد.. الـورد يجعلهـا متماسـكة ومتوازنة ويجعل للحياة معنى وقيمة وهدفاً.. والورد يجعلها تردد أن الحياة تستحق أن نحياها.

ثـم تلجأ إلى البستاني امرأة متوسطة العمر ذات حسن رائع وذات كـبرياء.. عرف الخبير من خطوتها أنها عاشقة ولهانة.. أخذت تتطلع في كـل اتجـاه وتتنفس بعمق وكأنها تريد أن تستحوذ على كل العطر ليسكن صـدرها.. والشـتاء يدفع بلفحات من هواء بارد تضطر الورود للتمايل.. طربـت المـرأة الجميلة لهذا المنظر فدندنت بلحن طروب زاد من تمايل الـورد.. صـوتها في مثل جمال وجهها.. أعطاها البستاني وردة كالملكة لتهديدها حبيبها.. ثم جاءه رجل تعدي منتصف العمر على استحياء فعرف بخـبرته أنـه لا يريد أن يبين أنه عاشق.. فأعطاه وردة ذات دلالة ليهديها

لمحبوبـــته الصغيرة. وتسربت إلى الحديقة طفلة قد نضجت بقلبها قبل الأوان فأحبــت.. نافســت الورد الأحمر بحمرة وجهها من شدة الخجل.. طمأنها البســتاني أن الحب لا يعرف قوانين الأعمار وحدودها، إن أي خفقة للقلب هـــي حب.. الحب حب.. منحها وردة برعمية دليل براءة وصدق لتهديدها لحبيبها.

وعلى غير توقع دخل رجل غريب المنظر الحديقة.. اكتأب البستاني.. داهمـــته مشـــاعر مختلطة برز منها شعور الأسى.. مضى الرجل الغريب حتى نهاية الحديقة وبلغ أطرافها حيث الورود الصامتة المعطلة من الرائحة.. جمع بعضا منها.. سأله البستاني لمن تريدها.. أجاب الرجل الغريب بصوت لا يحمل إلا معنى النهايات: أريدها لأشخاص تقرر رحيلهم.

في اليوم التالي علق البستاني يافطة على حديقته مكتوباً عليها حديقة الحياة والموت.

رائحة الجنة

هـــل من الممكن أن تكون الرائحة شعوراً نفسيًا وليست واقعاً مادياً لابد من توافره ليتحقق الإحساس بالشم؟

نعم.. وقد نشم رائحة ما دون أن يكون هناك مصدر لهذه الرائحة.. ولـــيس هذا نوعاً من الهلاوس المرضيه وهي أن يشم الإنسان رائحة ما أو يســـمع كلاماً أو يرى منظراً وكأنه واقع مادي ملموس دون أن يكون هناك مصـــدر خارجي لهذه المدركات الحسية.. والمريض صادق حينما يقول أنا أشـــم أو أســـمع أو أرى.. ويكون السبب في هذه المدركات المادية الزائفة اضطراب في كيمياء المخ.

إلا أن بعـــض الأصـــحاء يدركون أشياء ليس لها وجود في واقعهم المـــادي الخارجـــي.. يـــرونها ويسمعونها ويشمونها ويتذوقونها.. في هذه الحالة يكفي أن يكون هناك وجود مادي لينتقل إليك من خلال حاسة واحدة علـــى الأقل ثم تتحرك بقية الحواس تلقائياً فتضفي أشياء من عندها.. على ســـبيل المـــثال أنت ترى إنساناً ما حقيقة فإذا بك تشم رائحة طيبة تجتاح المكـــان بمجـــرد ظهور هذا الشخص بالرغم من عدم وجود مصدر لهذه الـــرائحة.. ولنا أن نتوقع في هذه الحالة أنك تحب هذا الإنسان الذي رأيته وأنـــك تراه جميلاً في كل شيء وأنه يثير لديك بمجرد رؤيته كل المشاعر

الإيجابية أي الجميلة والطيبة وإذا بمشاعرك الإيجابية تتحول إلى مدركات حسية مصدرها قلبك وليس الواقع الخارجي.

ولـذا فـإنك ترى الإنسان الذي تحبه جميلاً في كل شيء.. وكأن الجمال كله اجتمع عنده.. وكأنه المثال المتكامل والرمز الأكمل.. وبذلك فهو يتحول إلى معنى.. إنه المعنى المطلق غير المحدود واللامتناهي.. ذلك هو الحب.. ولذا فمن يحب لا يسأم محبوبه وإن طال الالتصاق به.. بل يشتاق إلـيه حتى في وجوده.. ويظل المحبوب متربعاً في عقل حبيبه محتلاً بؤره الوعي الأساسية فإذا كل شيء يدور حوله وإذا هو المصدر لكل جمال في الوجود.

وإذا غـاب المحـبوب عنك ثم ورد على الخاطر فإنك تشم واقعياً رائحـته الجميلة ويرن في أذنك صوته الجميل وهو يتكلم أو يتغنى ويعبر أمـام عينـيك متمايلاً مختالاً كأجمل وجه خلقه الله وكأكمل جسد أبدع الله صـنعه.. وإذا بمـذاق رائع يجتاح فمك وجوفك ليس كمثله أي مذاق لأي طعـام تحـبه بـل هو مذاق جديد مختلف يثير لديك أقصى درجات التلذذ الفمـي.. ثـم لا يسـتبعد أن تحس بيده تمسح عليك لا لإثارة غرائز وإنما لتمـنحك الهـدوء والسـكينة والسلامة وهي أحاسيس تفوق اللذة الجسدية بمـراحل فـتلك هـي لذة الروح ولكن هذا لا يمنع أن تستثار لديك أيضاً أعصابك الحسية المنتشرة في الجلد من جراء ملامسة يد محبوبك.

هكذا يفعل بك لمجرد ورود خاطر محبوبك على ذهنك فإذا بك تراه رؤية حقيقية وتسمعه وتشمه وتتذوقه وتتحسسه كأنه موجود أمامك في هذه اللحظـة أو كأنه ملتصق بك، ولكن الحقيقة أنه يكمن في داخلك أي تحول إلى معنى.

وعـــالم الإنســـان المادي يتحول في داخل ثنايا عقله إلى عالم من المعانـــي أي يـــتجرد مـــن ماديته ويعاد تشكيله على هيئة فكرة وشعور.. وحيـــنما تحـــب فـــإن حبيبك يتحول إلى كل المعاني الجميلة مجتمعة فهو الجمـــال والخـــير والســـلام والأمـــان.. وهـــو الأمانة والشرف والصدق والإخلاص والوفاء.. وإذا غاب عنك اشتقت إليه وفي هذه الحالة فإن معناه فـــي داخلـــك يتجســـد لحواسك كواقع مادي خارجي فتشمه وتتذوقه وتراه وتسمعه وتلمسه. ولا تستقيم حياة بين البشر إلا بالحب.. ولا يمكن للإنسان وجـــود على الأرض أصلاً إلا من خلال حب الله لهذا الإنسان.. وحب هذا الإنســـان لخالقه ومصدر وجوده.. الله هو مصدر الوجود.. ولقد أحب الله مَنْ خلَقه.. ولو لم يكن يحبه لما خلقه.. أحب الله الإنسان في الصورة التي خلقه عليها.. الإنسان هو محبوب الله.. إذن عملية الخلق ارتبطت بالحب.. لا خلـــق بـــدون حـــب، والحب هو الباعث على الخلق.. والخالق هو الله المحب المبدع المصور.

وبـــدون أن تدري فأنت تحب الله حباً جماً.. حباً يفوق كل الحدود.. فهـــو حـــب بـــلا حـــدود.. حـــب يمتد إلى ما هو أبعد من حدود الأرض والســـماء.. أنت تولد وفي قلبك حب الله.. وكلما كبرت عمق هذا الحب.. يتخذ معاني جديدة.. تقترب أكثر وترى أوضح وتشعر أعمق.. إن حبك لله حـــب يـــنمو.. يكبر.. يتعلق.. يعمق.. يتسع.. يزداد حجماً وثقلاً.. ويكون هـــو.. أي حب الله .. مركز توازنك واتزانك وثباتك.. لأنه في الأصل هو مصدر وجودك.

إذن مصدر وجودك هو حب الله لك واستمرار حياتك بسبب حبك لله.. وكلما نضجت ازداد شوقك للقاء الله.. وهو شوق يفوق شوقك لزيارة الجنة

والإقامة بها.. والحنين هو نوع من العذاب الرقيق.. العذب المحبب للنفس.. وهو محبب للنفس لأنه يعبر عن مشاعرك لمحبوبك.. إنك مازلت تحبه.. إنه مازال محور حياتك.. ولهذا يستعذب الإنسان عذاب الحنين لأنه دليل حب.. دليل أن الحب مازال حياً ومازال محور حياتك.. ومازال قوياً لأن الحب هو مصدر حياة الإنسان.. والإنسان يريد أن يستمر حياً.

والحنين إلى الله حنين طاغ نابع من تشوق للرؤية.. رؤية الجمال المطلق والنور المطلق والرحمة المطلقة والقوة المطلقة والحكمة المطلقة والسلام المطلق..

هذا هو الله الذي تهفو إليه القلوب حنيناً وشوقاً.. ولأن الأمر مستحيل طالما ظل الإنسان حياً على وجه الأرض فإن الإنسان المحب العاشق الولهان يستحضر الله في عقله وفي قلبه.. هذا الاستحضار يغمر النفس بشعور غامر من النشوة كما أنه يسبغ على الحواس القدرة على معايشة واقع مادي معين يرى فيه الجنة.. فأهل الجنة هم المقربون إلى الله والمرشحون لنيل حظوة التمتع برؤيته.

ولذا فإنك تستطيع أن تشم رائحة الجنة وأنت ساجد أو راكع أو وأنت صائم أو وأنت تطوف حول البيت العتيق أو وأنت تتصدق وتتزكى أو وأنت تذكر الله وتقر بوحدانيته وتصلي على رسوله.

وإجمالاً للقول بعد تفصيله فإنك تستطيع أن تشم رائحة الجنة وأنت تفعل أي خير أو وأنت تمتثل لأوامر الله.. وكلما محيت عنك سيئة بحسنة تفعلها فإنك تتمكن أكثر من استنشاق عبير الجنة والتمتع برائحتها.. تأمل نفسك وراقب أحاسيسك مثلاً وأنت تصلح ذات البين أو تستر عيباً لمؤمن أو وأنت تعفو وتتسامح أو وأنت تبر والديك أو وأنت تصل رحمك أو وأنت

تقضي حاجة لإنسان.. في كل هذه الأحوال سوف تجد نفسك وأنت تستمتع برائحة الجنة.

ومن السهل أن تتعرف على رائحة الجنة ولكن من الصعب أن تصفها لغيرك.. والروائح بالذات لا يمكن وصفها. فأنت تستطيع أن تصف منظراً أو أن تحدد لوناً أو أن تشبه صوتاً بأصوات أخرى في الطبيعة لكنك من الصعب أن تصف رائحة.. ولذا اخترع الإنسان أسماء للروائح التي يصنعها وهي إما أسماء مواد طبيعية في الحياة كرائحة الزهور مثلاً ولكن الأعم الأغلب هو أن يختار الإنسان معنى ما كاسم لرائحة ما وكأن هذه الرائحة توحي بهذا المعنى.

واعتماداً على هذا المنطق فإن رائحة الجنة هي رائحة الحب وليست رائحة مواد طبيعية.. إن حاسة الشم التي تتعرف على الروائح الطبيعية والمصنعة في الحياة الدنيا.. ورغم أن رائحة الجنة هي معنى وهي حالة وجدانية إلا أنك تشمها فعلاً من خلال حاسة الشم.. أي أن المعنى يتجسد في صوره عضويةٍ مادية.. إنها حالة من النشوة واللذة والسرور والتي لا تتحقق إلا في ظلِ جمال أخاذ.. بل هو جمال مطلق.. وهي حالة لا يمكن أن تتحقق إلا بالتأمل العميق في الذات الإلهية.

وصديقة الورد في الحياة الدنيا ينبعث منها خليط من أريج كل الأزهار والورود.. إنه مزيج غريب لا يتحقق إلا للعاشق ولا يحركه لدى العاشق إلا حين يرى حبيبه أو يستجمعه في ذاكرته.. وهذا قدر ضئيل من رائحة الجنة.. ومن نعم الله على الإنسان أن أتاح له أن يشم رائحة الجنة وهو على الأرض.. ولكن الفرح الأكبر هو حين يتاح لك أن تدخل حدائق الجنة.

سقوط رجل

أنا امرأة لا أقف أمام المرآة طويلا ولا أتزين إلا قليلاً وأرى نفسي جميلة الجميلات حسب تأكيدات زوجي لي وأنا أصدقه تماماً.. ورغم وصولي إلى الخمسين فإنني شديدة الحيوية.. أشع نشاطاً وتتدفق طاقتي، فتملأ الدنيا صخباً يسعد من حولي.. أنا أرى نفسي بعيوني الداخلية وبعيون زوجي ولذا أنعم بالثقة والهدوء، وأنام بعمق وأصحو مبتهجة وأعشق الحياة.

وتعجب مني النساء إذ لا أخفي عمري الحقيقي بل أعلنت ارتياحي حين انقطع الطمث حتى أرتاح من عذابات جسدية تتكرر كل شهر.. ولكن يبدو أنني كنت مفرطة في التفاؤل وغير محقة في ثقتي بزوجي.

والألم الحقيقي في هذه الحياة مصدره دائماً إنسان آخر.. أنا لا أتألم من أي مشكلة مهما عظمت، ولكني أتألم بشدة حين يحاول إنسان آخر أن يجرحني.. والجرح في حد ذاته ليس مهماً بقدر أهمية اليد التي تسببت في الجرح وأيضاً الدوافع التي أدت إليه.. والألم النفسي غير الألم العضوي.. الألم العضوي ينحصر في مكان معين أما الألم النفسي فيجتاح الإنسان كله.. عقله ووجدانه.. الألم النفسي هو التعاسة.. هو الحزن العميق.. هو اليأس.. هو الإشفاق على النفس.. الألم العضوي يجعلك متلهفاً للدواء للخلاص من

الألم لتستمتع بالحياة، أما الألم النفسي فهو انطفاء الحياة ذاتها وعدم الرغبة فيها والعزوف عنها وربما تمني الخلاص منها.

زوجي جرحني وأدمى نفسي..

والجـرح عمـيق تسـرب منه السم إلى كل أنحاء الجسد فارتفعت حرارتي وارتجفت وتقيأت وامتنعت لا إرادياً عن الطعام، وانخفض وزني فصرت كالشبح ولم أقو على مغادرة الفراش.. وطال المرض..وكنت أبكي ولا أتكلم..

وتحير الطب، وتلقيت علاجاً نفسياً.. أقراصاً ضد الاكتئاب، وتماثل الجسد للشفاء، لكن الحزن لم يبرحني، التعاسة لم تتركني وكنت كالمذهولة لا أركـز في شيء.. ولا أحتفظ في ذاكرتي بمعلومة أو موقف.. وشعرت في النهاية بأنني عالة على الحياة لا فائدة مني ولا أستحق الحياة.

ولم أفصح، فشل الجميع في أن يعرفوا سري.. فأنا بطبعي لا أحب الحديث عن مشاكلي.. أنا لا أشكو أبداً.. أتحمل وحدي العبء حتى الطبيب ذاته لم أصارحه حتى لا أشوه سمعة زوجي.

أقام زوجي علاقة غير شرعية مع امرأة أخرى.. وردود فعل أي زوجـة فـي هـذه الحالة تختلف.. قد تثور زوجة وتهدد وتتوعد وتشعل الحرائق في البيت، حتى يقلع الزوج ويتوب عن زلته، ويعود نادماً وتغفر الزوجة وتنسى..

وقـد تطلـب زوجـة أخرى الطلاق.. وقد تنتقم زوجة أخرى بأن تصـادق هـي الأخـرى رجلاً آخر.. وهناك زوجة ترضي بالأمر الواقع وتسـتمر فـي الحياة إما عن حكمة يوحي بها عقلها بأن هذه نزوة عابرة

ومراهقة متأخرة سرعان ما يبرأ منها الزوج ويعود إلى سابق إخلاصه، وإما عـن استسلام لحاجتها للاستمرار أو لما يوفره لها هذا الزوج من مال أو سـلطان بمـا يجعلهـا تتغاضـى عن أخطائه وبخاصة المتعلقة بعلاقاته المحرمة.

الأمـر بالنسبة لي كان مختلفاً تماماً.. استجمعت واستحضرت في ذهنـي كل المبررات التي من الممكن أن تدفع برجل إلى معرفة أخرى.. وابـتدأت بفكرة كانت قد علقت بذهني وقتها من حكم أمي ولكني كنت قد نسـيتها، وهـي أن الرجل تعددي بطبعه يجذبه الهوى إلى أكثر من امرأة علـى خلاف المرأة فهي أحادية لا تستطيع أن تعرف إلا رجلاً واحداً، في آن واحد، وتفضل أن تعرف نفس الرجل طوال حياتها.

وبـناء على نصيحة أمي فإن الزوجة العاقلة هي التي تغفر لزوجها استناداً إلى تكوينه النفسي البيولوجي الذي خلقه الله عليه.

ومازال عقلي يوحي إلى باجتهاداته الحكيمة فيلقي باللوم عليّ إذ من الجائـز أنني أهملت هذا الرجل و ركزت على عملي وعلى الاهتمام بحياة أولادي.. وفـي هذه الحالة يجب أن أعاود الاهتمام بزوجي لأستعيده لأني تعلمـت مـن أمـي أيضـاً أن الرجل كالطفل يحب الاهتمام والتدليل وإلا انصرف إلى من تحقق له مستوى أعلى من اللذة.

ثم حادثني عقلي بشيء كنت قد قرأته وهو أن الرجل بعد الخمسين تهـتز ثقـته بنفسـه نظراً لتراجع قدراته، فيحب أن يؤكد لنفسه أنه مازال مرغوباً ومطلوباً، فيدخل في مغامرة كالمراهق سيخرج منها خاسراً بالقطع فيعود مضطراً إلى سابق إخلاصه.

كانـــت هذه الأفكار التي استعدتها في ذهني تصلح مبررات معقولة لـــرجل خـــان زوجته.. وكنت على استعداد لأن أقبل أحدهما فأعالج الأمر بهدوء حتى أستعيد زوجي، أحمي بيتي وأصون مستقبل أبنائي.

إلا أن الأمر بالنسبة لي كان مختلفاً إذ أن المرأة التي عرفها زوجي كانت في العشرين من عمرها وكان هو قد تعدى الخمسين بثلاثة أعوام.

وقــد يقــول قــائل مـــا الفرق بين امرأة في العشرين وأخرى في الخمسين.. فالخيانة واحدة في كلتا الحالتين.. وقد يقول آخر إن غيرتي من الفتاة الصغيرة هي التي جعلتني أنهار إلى هذا الحد.

والحقيقة أن الأمر عندي كان له مغزى مختلف تماماً عن أي معنى من الممكن أن يعتري عقل أي إنسان رجلاً كان أم امرأة.

الجرح عندي لم يكن بسبب أن زوجي على علاقة بامرأة أخرى، لكن لأن زوجي عرف فتاة صغيرة.. وألمي ليس بسبب غيرتي لصغر سن هذه الفـتاة لكـــن لأن زوجـــي الذي أحبه وأحترمه قد تدنى إلى هذا المستوى الغريـــزي الحيواني.. فليس هذا هو زوجي الذي عرفته على مدى ثلاثين عامـــاً.. لم نكن نمارس جنساً بل كنا نمارس حباً.. كانت روحه هي التي تسـبق في العناق قبل أن تتلاصق الأجساد.. كانت الرومانسية هي خلقه.. والرومانســية حيــن تصـــبح خلقاً فمعناها السمو.. الارتفاع.. التحليق في الســماء.. الإخلاص عن رضا.. الوفاء عن طباع أصلية.. وكل ذي خلق هـــو رومانســـي وكـــل رومانسـي يكون على خلق عظيم.. كان زوجي رومانســـياً.. كـــان زوجي خلوقاً.. كان رقيقاً مرهفاً شاعرياً ودوداً رحيماً عــف اللســـان.. ولـــم أشــعر في لحظة أثناء ممارستنا للجنس أنه نهم أو متوحش، وإنما كان تركيزنا يدور حول مشاعرنا وسعادتنا بأننا معاً.

ومعـنى أن يعرف زوجي فتاة صغيرة أنه تخلى عن رومانسيته.. أنـه تدنى.. أنه سقط.. أن أخلاقه قد تبدلت.. وهذه هي مصيبتي.. أو هذا جانب من مصيبتي.

أمـا الجانب الآخر من المصيبة فهو أن زوجي رجل مثقف.. يقرأ كثـيراً.. يكتب كثيراً.. لا ينطق إلا عن منطق عميق الفكر.. بعيد النظر.. ثاقـب الـرأي.. مهيـب بفكره.. مطلع بحكمته.. مستشار برأيه السديد.. محبوب بصفاء عقله انعكاساً لنقاء ضميره.

كـيف إذن يسـتطيع هذا العملاق أن يتفاهم مع عقل بسيط لفتاة في العشرين؟ لماذا هبط من عليائه؟ لماذا حط من فكره؟ كيف يتحدث معها؟ ما لغـة الحوار بينهما؟ كيف يستمتع بعقله معها ذلك الرجل الذي كانت متعته الأساسية هي العصف الذهني.

هذا يكون– مرة ثانية– معناه أنه أصبح بدائياً غريزياً شهوانياً.

أمـا الجانب الثالث من المصيبة فهو أنه من المنطقي أن أكف عن حـب هذا الرجل.. فهو ليس الرجل الذي أحببته وليس الرجل الذي عشت معه شبابي حتى وقفت على أعتاب الشيخوخة.

وهـناك تكمن مأساتي الحقيقية مع نفسي وبسبب نفسي: ليس لأن زوجي عرف امرأة أخرى.. ولكن لأنه عرف امرأة صغيرة السن في عمر ابنتـنا.. وهـذا لم يدفعني للغيرة ولكن دفعني للتقزز لأن هذا معناه أن هذا الرجل قد فقد رومانسيته وخلقه وانحط فكره..

ولكن ولكن رغم ذلك مازلت أحبه، ولذا مرضت لأني لا أدري ماذا أفعل.

أقبل الشتاء

همس الشتاء صار لغواً مسموعاً وإن لم يصبح بعد مدوياً، إرهاصاته أبانت عن نفسها فهطل المطر بجلاء في غير أوانه، وفي لحظة تكثفت كل ذكريات الشتاء في هجوم مفاجئ على الخاطر بعضها يبعث على الدفء والبعض الآخر تتكسر منه الأسنان من شدة الاصطكاك .. بالفرحى وبالحزنى في آن واحد .. إنه الفصل الوحيد الذي أعاين فيه المشاعر المختلطة، تباين غريب لا يقدر عليه أحد فالإنسان إما فرح وإما حزين، وأحياناً لا شيء، ولكن أن تجتمع لديه المتناقضات فهذا أمر فريد، وإن لم يكن شاذا، فالإنسان ذاته هو الغرابة بعينها.

اندس في معطفه رغم أن هذا ليس أوان المعطف ولكن الزيارة المفاجئة للمطر أهاجت الذكريات وحركت الوجدان فأراد استدراج مشاعر بعينها بعد ركود سخيف أماته في الخريف، بقي أن يوقظ روحه، وياللعجب أن تستيقظ روح في الشتاء، ياللعجب أن تزدهر حديقة الشتاء، إن ورود الشتاء عزيزة وخضرة الشتاء فقيرة، وألوان الشتاء باهتة إلا أن حديقته هو لا تتلون ولا يفوح أريجها إلا في الشتاء.

مشى ملاصقاً للبحر دون أن يأبه لابتلال قد يلحقه، تقبل المطر برأسه عارية متعمداً، بل كان يرفع وجهه للسماء مستعطفاً المزيد من

المطـــر وكأن يدا حانية تمسح على وجنتيه، كان يستعذب ملامسة قطرات المـــاء النحـــيلة لشـــفتيه الغليظتيـــن متعمداً أن يترك بينهما انفراجة تسمح بانســـياب بعض القطرات إلى حلقة لتهيج أغشيته الداخلية، يالمغزى مرور المـــاء عبر تجويف حشوي، هكذا الشتاء كان لا يثير فقط وجدانه بل كان يثـــير أيضاً أحشاءه فالشتاء والدفـء لا يأتي إلا من أنفاس إنسان آخر، أين أنـــت أيها الآخر؟ وكيف تطيب حياة بدونك؟ وكيف أنعم بشتاء من غيرك، ولا أملك إلا الذكريات ودفـء الذكريات خيال محض يدفئ الروح ولا يدفئ الجســـد، ولـــذا ارتجّ داخل معطفه رغم أن البرد لم يكن شتاءً حقيقياً، متى يجيء الشتاء!!

ولماذا كل هذا الحب للشتاء ؟

لأني في الشتاء أكون إنساناً ..

وكيف تكون إنساناً وأنت إنسان فعلاً ؟

يكـــون الإنسان إنساناً حين يحتاج لإنسان آخر، الإنسانية هي اثنان فرداً واحداً، اثنان معاً يدفئ كل منهما الآخر، ولا يستلذ دفـء إلا في الشتاء، اللذة هي بنت الشتاء.

وأطبقـــت ســـحابات بيضاء زادت من احتمال تزايد المطر فابتهج أكـــثر، وكلما استعاد برودة الشتاء في ذاكرته زاد إحساسه بالدفـء ويا له من مزيج غريب، برودة ودفـء في آن واحد، إحساس نادر لا تستشعره إلا في الشتاء، الأضداد معاً، أحدهما يجيء بالآخر، برودة تلد دفئاً.

تمادى في فرحه حتى وصل إلى النقطة التي بزغ فيها الحزن، من قلـــب الفرح، فكلما عمق الفرح لاحت تباشير الحزن، حزن يولد من بطن فرح.

ولماذا الحزن أيضاً؟

لأن القلب لا يحتمل فرحاً بلا حدود، فالحزن يهدئ من عنفوان الفرح فأقوى على تحمله.

وكيف تحزن ودفؤك يأتي من أنفاس إنسان آخر؟

أحزن حين أتصور أني قد أفقده، فراق الحبيب في الشتاء هو فراق للحياة.

ولماذا تفارقه وهو بين يديك؟

هكذا الحياة، متقلبة كالفصول، لا تثبت على حال وفهم الحياة يجعلك لا تستغني عن الحزن، إنه يؤهلك للصدمات، يعدك للأهوال، يحميك من المفاجآت، يصونك من الانهيارات؟

ألا يؤلمك هذا الحزن؟

إن مزيج الفرح والحزن له مذاق خاص كعصير فواكه الجنة وقد صارت خمراً فجمعت بين حلاوة فائقة ومرارة محتملة ويصبح الشراب مستعذباً مستساغاً.

استمر في مشيه محاذياً وملاصقاً للشاطئ في طريق قطعه مئات المرات، تعلق قلبه بأكثر من فتاة من عاشقات البحر، تبدأ القصة في الصيف ولكنها لا تعمق إلا في الشتاء، حتى جاء يوم وأحب بحق، وعند ذلك تذوق طعماً لكل فصل، فعرف أهمية الحب في الشتاء وأهمية الشتاء للحب.

وهلت سحابات داكنة من بعيد وامتزجت بالسحابات البيضاء المحلقة بعيداً فتشكل ما يشبه سقفاً كثيفاً يحجب السماء فشعر بالضيق وهكذا اكتملت

دوائر الفرح والحزن والدفء والبرودة تحت مظلة ذكريات حب جعل لكل حياته معنى، ومنحه القدرة على استشفاف الجمال في كل شيء يستثير حواسه.

وكانت السماء شحيحة فتوقف المطر، وأطلت شمس متشفية وزادت من حرارتها، فأصبح المعطف عبئاً عليه، ولا يدري كيف اختفت السحابات دون أن تجود بماء فأدرك أنها سحابات خريف كاذبة، فأفاق من الوهم وتأكد أن الوقت لم يحن بعد لقدوم الشتاء.

وواجه الواقع بتجهمه هو الآخر، وعاودته المشاعر التي ليست فرحاً وليست حزناً، وليس أسوأ من الأشياء المائعة، وشعر بالزهق فالجو ليس برداً وليس حراً بل كان وسطاً، والأشياء الوسطى ليست براقة وليست مميزة، ولا تترك أثراً في الذاكرة إن الوضوح في الاختلاف، والتفرد في الشذوذ، والإثارة في الجنوح واللمعان في المغالاة والتميز في التمادي، ولذا فالجنون قد يكون مثيراً لأنه تحدّ للمألوف وتمرّد على القوالب واصطدام بالراسخ، فالجنون ثورة، والمجنون ثائر، ولا يهدر البحر إلا برياح عاتية، ومن يرتاد البحر عليه أن يتحمل العواقب، فقد يغرق، وقد يعود باللؤلؤة الثمينة، ليهديها للأميرة ليزدان بها عنقها المرمري الذي يحمل رأساً تبارك الله في جمال وجهها.

تسأمل داخله ففهم لماذا استعجل قدوم الشتاء لقد كان يعيش وحيداً فأراد أن يهيج ذاكرته لتجود عليه بصورة رفيق، ولما أعلنت الذاكرة العصيان حيث إن الفصل ليس ملائماً قرر أن يتزوج وكانت هي في انتظاره أملاً وشوقاً، فتزوجا هدأت النفس واستقرت الجوارح، وتعطر المكان بأنفاس صادرة عن اثنين بدلاً من واحد في مزيج يبعث على إثارة

لا يطفئها إلا تجاورهما في الفراش. ورغم أنه رواج أسس على حب إلا أن الحياة انحدرت في اتجاه السكون والركود والكمون وانعكس ذلك على تباعد المسافة بينهما في الفراش ثم استقلال كل واحد بحجرته ثم زحف الاستقلال إلى الاهتمامات والصحاب وحينئذ انقطع الكلام وساد صمت مريب كصمت القبور وسكن الهواء فلم تعد ترى موجة واحدة على سطح بحر هائل.

عاد إلى البحر بمفرده وقد أقبل الشتاء، إنها فرصة ليزحزح جبل الضجر من فوق صدره، فلمح امرأة من ظهرها، أعجبه شعرها المنسدل إلى ما فوق خصرها، راقت له ملامح جسدها.

هزته طريقة مشيها، ضحك في نفسه فهذا بعض شذوذه إذ أن مشية المرأة هي أشد ما يثيره، فهو يرى أن حركة الجسد أثناء المشي تعكس ما بنفس الإنسان، إن التكوين النفسي وحركة الجسد أثناء المشي هما شيء واحد.

تتبعها، ووجدها تقطع الطريق الذي اعتاد أن يمشي فيه، هجمت السحب بشراسة، هطل مطر سخي، استحمت روحه فشعر بشبه بهجة، لم تغب المرأة عن عينيه أحبها من ظهرها، حاول أن يتصور وجهها فخالها تشبه المرأة التي أحبها، استدارت فجأة، وكانت هي بعينها، المرأة التي يحبها وقد سبقته إلى حيث اعتادا المشي معاً، قبلها بينما كانت مياه المطر تحاول أن تنفذ دون جدوى ما بين الشفاه المتلاصقة.

قوة الضعف .. وضعف القوة

ما من قوة إلا وتحمل في طياتها ضعفاً، وما من ضعف إلا ويحمل في طياته قوة، لا تغتر بالسطح، انظر في الثنايا، فإذا كان الظاهر قوياً فلعل باطـنه ضعيف، وإذا كانت القشرة هشة فلعل الجوهر صلب، لا تخفْ قوياً ولا تستهن بضعيف، فمن يتعمد أن يرهبك بقوته فهو أحمق لا يعلم أن الله لا يحـب كل مختال فخور وأن نملة ضعيفة من الممكن أن تخترق أحشاءه دون أن يملـك لها دفعاً، أما من تظنه ضعيفاً فقد يمتلك من قوة العزم من نبع الحق ما يجعل ذراعه طويلة تنال من الظالم من حيث لا يدري، أليست الزهرة نحيلة وتملك من الأريج ما يهز الأبدان، وأليس الفجر رقيقاً ويملك مـن التأثير ما يغسل النفوس ويزيل غل القلوب أليس الجبل قوياً ولا يملك أن يصـد طفـلاً يقذفه بالحجارة، وأليس البحر عربيداً ولا يملك أن يمنع سمكة من أن تودع فضلاتها في بطنه. فهكذا أي قوة غاشمة من الممكن أن تلقي فوق رأسها حجارة السجيل وأن تقذف في جوفها بالروث.

الأم.. قوة الوهن:

تحمله وهناً على وهن، ولكنها صابرة صامدة، ليس صبر الكارهين ولكن صبر العاشقين المتلهفين الحامدين الشاكرين، أن من الله عليهما بالنعمة ليحقق دورها وتتأكد جدواها وتعمر من حملها الأرض، يا له من ألم عظيم.

ويا له من اعتزاز أعظم وأجل، كيف لهذا الجسد الذي اختل نظامه وثقل حمله أن يتحمل كل هذا العناء؟ إذا أردت أن تعرف فاسأل الروح التي تزهو وتشدو من فرط سعادة من نبع طمأنينة أنها ستصبح أماً، إنها تحمل السر الأعظم ما بين أحشائها، ونظنها غير قادرة من شدة الوهن، لكنها تستمر وتصمد،، ويأتي الموعد، فتشتد الآلام، من عاينتها تقول إنها آلام فوق طاقة البشر ولابد أن تصرخ، فإذا الصرخة مطعمة بالأمل، ويتحقق الأمل حين تسمع بأذنها صرخة الوليد، فيرقص قلبها فرحاً ويتبدد الألم ويذهب عنها الوهن، وتنهض متعافية لتبدأ مرحلة أخرى تحتاج إلى مزيد من الصبر والتحمل من أجل تقديم إنسان جديد للحياة، وكم تتمناه أن يكون صالحاً.

الجرثومة:

لا تنجح عضلات فظة في أن تمنع جرثومة من أن تسكن بين شرائحها فتلهبها وتصيبها بالعجز، فتجعلها لا تقوى على مقاومة طفل عضلاته كالخيوط، إذا تبارزا ينتصر الطفل ويقع العملاق الوحشي على الأرض.

تجتمع الجرثومة والطفل على قهر الأسطورة العضلية، إنها جرثومة لا ترى بالعين من شدة تناهيها في الصغر، وما أقسى المرض على النفس حين يصيب من يظن أنْ لا مرض يقوى عليه من فرط قوته، ولكن الجراثيم النافذة لا رادع لها وإن بدت ضعيفة؛ إنها ضعيفة في حجمها ولا تملك عضلات ولكنها تنفث السموم التي تهد الجبال، يا سبحان الله، خلقت لكل قوة ما يقهرها، لا تناهي في قوة، ولا إطلاق لقدرة، والله على كل شيء قدير.

هــو:

نحــيل إلـــى حد الرثاء، نصف فارغ، ولكن قلبه يعمر بإيمان أمة بأكملهـــا وعقله يحفل بفكر لدنيا مضمونة الحق والعدالة، ونفسه تئن بظلم الإنســـان للإنسان، ودموعه لا تجف من حزنه على قهر الإنسان للإنسان، وأغــرب مـــا في هذا الرجل دموعه، فمع كل قطرة دماء تنزف من جسد شــهيد تهطل دمعة من عينه، ما أكثر ما ذرف من الدموع لكثرة ما نزف من دماء. والأسطورة تحكي أن كل دمعة من دموع هذا الرجل تتحول إلى حيوان منوي يخترق باطن الأرض فتحمل وتلد بطلاً، ويصير الطفل البطل رجلاً في زمن قصير.

فالقهــر يختصر مراحل النمو، ويتزايد عدد الأبطال وكلهم في مثل فحولته ومحدودية قامته ولكنهم يملكون بأساً شديداً يصهر الحديد، ويقومون بالمعجــزة فيصهرون قلب القوة الظالمة مهانة وتحقيراً واستهزاء، ولا أحد يصـــدق، ولكـــن لا تعجب إنها القوة التي تنبت من قلب الضعف، إنها قوة الحق.

أمنا الغولة:

اجتمعــت لديهـــا صفات الغولة والأفعى، فهي كالغولة في حجمها المـــنفوش وكـــالأفعى فـــي سمها المنفوث تهدد وتتوعد وتنذر وتمنع وتجوع وتقتل وتحرق، وهي لا تقتل إلا الضعفاء ولا تحرث إلا الزرع ولا تبطش إلا بالمســتكين لتســيطر، ثم لتنهب وكانت تزهو بأنها الأضخم حجماً والأكثر طـــولاً، فـــلا أحد بقادر على أن يحوطها أو يطاولها، ومن الصعب اختراقها لأنها تسد عين الشمس.

ولكـن كطـير الأبابـيل لا يعترض طريقها أحد وهي لا تمتثل إلا لأوامر ذلك الرجل النحيل، فإذا بها بغتة وعلى غير توقع تُسقط فوق الغولة حجارة من سجيل فتجعلها كعصف مأكول.

الأنثى:

ذلـك الوجه الوضاء يستطيع بابتسامته الصافية أن يهزم أطناناً من الشر، يبدو ضعيفاً من تكوينه البسيط وملامحه غير الصارخة، ولكن نوراً ما يشع من بين مسامه ويفترش القلوب فينصهر الغيظ.. ويتبخر الحقد ويعم الهدوء وتنعم النفس بالسكينة ويسود الحب، تهز قلب رجل يعشقها، تطمئن قلـب رجـل فيـتزوجها، ضعيفة في عليائها قوية في مودتها متمادية في رحمـتها، تخفـض له جناحها، وإن علت في سموها، تخضع له قلبها وإن سـيطرت برقـتها تطـيعه وإن أثرته بفكرها، لا تأنف من تبعية هي في حقيقتها رفقة والتزام والتصاق وذوبان، فإذا هي متداخلة في صميم رجلها وليسـت خلفه بالمعنى المألوف للتبعية، يا لها من امرأة قوية، تستمد قوتها من ضعفها، وتلك هي الأنثى.

السيد:

له مهابة ليس مصدرها فحولة، وله وجود ليس مصدره زعيق، وله قبول ليس مصدره نقود، بأسه في حكمة عقله، وقوته في رقة قلبه، مضى زمان الفتونة، العقل هو الحاكم بأمره، والقلب هو الأمر المطاع، ولابد من قـائد لكـل سـفينة، وهو القائد، ولا يصلح للسفينة قائدان، والقيادة ليست عضـلات مـتحفزة ولساناً يتدنى إنما القيادة هي روح رحبة تظلل الجميع فتدفئ وتنعش وتقنع، القيادة هي لغة العقل ولغة القلب معاً، هي لغة المودة والرحمة في سفينة الحياة الزوجية.

تخضع المرأة لقوة عقل وليس لقوة عضلات، وتضعف المرأة لرقة قلـــب وليس لزمجرة لسان، والحكاية تقول إنه رجل حازم وهذا ليس معناه أنـــه صـــارم وإنما متزن فيعدل، والحكاية تقول إنه رجل جاد، وهذا ليس معـــناه الـــتجهم وإنما بشوش فيحفز، والحكاية تقول إنه رجل حاسم، وهذا ليس معناه القسوة، وإنما الفطنة فينجز.

وكـــيف لرجل متزن وبشوش وفطن لا تخضع له امرأة، فمن قلب المـــودة والرحمة تولد قوة الرجل فيصبح سيداً، ولذا فالضعف الحقيقي هو قلة العقل، وخسة القلب، والقوة الحقيقية هي حكمة العقل ورحمة القلب.

رجل حازم

لكـــل إنسان أسلوب في الحياة، أي طريقة السير في هذه الدنيا وفقاً لمفهومـــه عـــنها، والـــناس قسمان، قسم يعيش بأسلوب قائم على الفوضى والتهاون والتفريط ويستمتع بما تجود به اللحظة من ملذات أغلبها حسي، لا يلـــزم نفســـه بشيء، ولا يلزم الآخرين، وقسم آخر يأخذ الحياة بمأخذ الجد ويلزم نفسه ويلزم الآخرين الواقعين تحت سيطرته بأسلوب حياة قائم على مبادئ يؤمن بصحتها ويمليها عليه ضميره.

والإنسان لا يستطيع أن يلزم الآخرين بشيء إلا بقدر ما يلزم نفسه، وعـــدم الـــتفريط يســـمى حزماً، أي الإلزام الكامل، وهناك حازم يأخذ في اعتباره قدرات الآخرين وظروفهم فيتجاوز أحياناً إلى حدود، ويتسامح عن خطـــأ، ويقـــبل عـــذراً، وهـــناك حازم آخر لا يعترف بضعف ولا يسمح باســـتثناءات ولا يقـــدر ظـــروفاً ولا يتجاوز عن تهاون وإنما يتطلب دائماً الأداء الأمـــثل وفـــق منهج صارم وأسلوب متشدد ولا يأبه إذا اتهم أحياناً بالقســـوة أو التعنت، أي بلا قلب أو أنه بلا عقل لأن المنطق يحترم قدرات الـــناس المتبايـــنة ويقـــبل ضعفهم ويدخل ظروفهم الطارئة في الحسابات النهائية.

منذ أن تزوجت هذه الفتاة المعتدلة الجمال وهي تعاني حزم زوجها الـــذي فـــاق كل حدود، فهي إنسانة بسيطة رغم عقلها الراجح عاشت في

بحـــبوحة هي وشقيقتها الوحيدة التي تفوقها جمالا مع أبوين يجيدان التعبير المفرط عن عواطفهما الجياشة تجاه ابنتيهما فأغرقتا حباً ودلالاً وحناناً فوق قاعدة رصينة من الأخلاق الحميدة والتمسك بالدين بلا إرهاق والتجاوز عن الأخطاء البسيطة التي لا تستطيع أي فتاة تجنبها عند سن معينة فلا يغضب الأب لضحكة عالية ولا تظهر الأم استياءها حين تبالغ إحداهما في زينتها بـــلا تجاوز مخل، ولا يشتعل الأب والأم معاً من الغيظ إذا انفردت إحدى بنتـــيهما بالتلـــيفون فـــي حديث غير مسموع عن تعمد ودون أن تجتاحهما الظنون.

لـــذا كانت الحياة سهلة دون توتر عضلي ودون تهيب نفسي ودون خـــوف مـــن الأخطاء الهينة ودون سياط تلهب الضمير ولذلك كانوا جميعاً يـــنامون بعمـــق ويجدون لذة في الحياة، والالتزام الوحيد المفروض بحزم نسبي هو التمسك بالقواعد الذهبية للأخلاق الحقيقية غير المطلية الواضحة لكـــل عين والمراقبة من كل ضمير كالصدق والأمانة والشرف والإخلاص والوفاء.

وفـــي هذه الأسرة السعيدة بالذات كان من الممكن للمتابع والمشاهد أن يتعرف على أهم قاعدة أخلاقية يرتكزون عليها وهي مصدر استقرارهم النفســـي وطمأنينـــتهم وسر نومهم العميق، هذه القاعدة كانت هي الأمانة، ليســـت أمانة القول والفعل فقط، وإنما- وهذا هو الأهم- أمانة التفكير، وقد تبدو أمانة التفكير تعبيراً جديداً، أو مفهوماً مستحدثاً إلا أننا لو أمعنا التأمل في ضمير جميع أفراد هذه الأسرة لاكتشفنا معنى أمانة التفكير وهي إلزام ذاتي عن قناعة وعن رضا بكل ما هو متفق عليه دينياً واجتماعياً على أنه معيار قِيَمِيٌ أي قاعدة أخلاقية ثابتة راسخة غير قابلة للحوار الذاتي أو النقد

أو التحليل أو المجادلة وبالتالي غبر قابلة للنقض أو التهاون النسبي في تطبيقها أو أي أعذار غير مقبولة حين التجاوز عنها.

وأهمية أمانة التفكير أنها ملزمة للإنسان بأمانة السلوك في أشد الأوقات حرجاً أو ضيقاً حين التعرض لضغوط مهما كانت قسوتها، وليس مسموحاً للإنسان في هذه الحالة أن يناقش الأمر مع نفسه، فهناك قواعد لا تخرق وهناك أساسيات لا تمس وهناك مبادئ لا يمكن التنازل عنها وهناك حدود لا يمكن تجاوزها، إن أمانة التفكير لا تقبل أي تنازل وتفرض سياجاً شديد الصلابة حول قيم معينة لا تهتز أبداً.

ومن القيم المهمة التي حظيت بأمانة التفكير لدى هاتين الفتاتين هي الالتزام الكامل بكل ما يفرضه الزوج من أسلوب للحياة، ما إن تتزوج الفتاة فإنها تقبل عن رضا شكلاً جديداً للحياة منبثقاً عن مفاهيم معينة يؤمن بها الزوج وتفرض أسلوباً له طبيعة خاصة، ويكون هذا التقبل منها عن رضا دون تنكر أو تأفف أو اعتراض أو رفض أو تمرد حتى وإن ضايقها، حتى وإن اختلف عن أسلوب للحياة مارسته في سابق عهدها قبل الزواج؛ المهم فقط أن يكون هذا الأسلوب الجديد لا يتناقض مع ما فرضه الله من حدود وما يقبله مجتمعها من قيم وعادات.

وهذه الأسرة كما قلنا تتكون من أب وأم وفتاتين أحداهما فائقة الجمال والأخرى أقل في جمالها بمقدار النصف إلا أنهما كانتا متطابقتين في الرسوخ القيمي والذي حظيتا به من أسرتهما دون تعسف، ربما التعسف الوحيد كان في أمانة التفكير التي لا يمكن أن تمس أبداً.

كان من الطبيعي أن يتم زواج الفتاة الجميلة أولاً ولحسن الحظ كانت هي الأكبر سنا، وخلت حياتها من أي مفاجآت أو منغصات لأن

زوجها كان صورة من والدها في أسلوب الحياة. أما الفتاة الثانية فقد تأخر رواجهـا نسـبياً بقدر تسبب في قليل من القلق لوالديها، وبدت لهفة الأب بـالذات فـي عدم تريثه في الاستفسار الجيد عن أحوال الرجل الذي تقدم أخـيراً لخطبـتها، كـل ما اطمأن له الأب أنه كان حسن السمعة ويُشهد له بـالأخلاق الحميدة والاستقامة، كان يكبرها بخمسة عشر عاماً، ولقد غض الأبـوان البصـر عن هذا الفرق الكبير في العمر وامتثلت الفتاة عن حب ورضا لأوامر الوالدين التي جاءت في صورة نصائح ودود وليست أوامر ملزمة.

ومنذ الليلة الأولى اكتشفت أن عليها أن تغير من أسلوب حياتها لأن هذا الزوج يختلف تماماً عن أبيها، والمقارنة مع الأب بالذات هي الأساس لأن الأب هـو نمـوذج رجولي للزوج، والابنة عاشت مع أب كان يشغل وظـيفة أخرى وهي أنه زوج لامرأة أخرى هي أمها، ولابنة إذا توحدت مع الأم أنـثوياً فإنهـا إمـا أن ترفض نموذج أبيها كزوج، إذا كانت أمها غير سـعيدة، وإما تقبله وتتمناه إذا عاشت أمها معه حياة سعيدة تحقق لها فيها الإشباع على كل المستويات.

ومـع فتاتنا كان نموذج الأب هو النموذج المثالي للرجل وللزوج في ضـميرها، ولهـذا تمنـت زوجاً مثله، ولكن منذ الليلة الأولى اكتشفت أن نمودج زوجها على النقيض تماماً من نموذج أبيها.

كـان الزوج حازماً إلى حد الصرامة، ملزماً إلى حد القسوة، تأخذ كل أمور الحياة مأخذ الجد في صغائر الأمور وكبائرها يحسب حساب كل شـيء ويزن كل أمر بميزان دقيق متبعاً نظاماً ثابتاً لكل شئون الحياة من نـوم ويقظـة وعمـل ومأكل وملبس وعلاقات، وإذا خرجت الأمور عن

مسـارها أبـدي اسـتياءه ورفضه وامتعاضه ونقده وتوبيخه بألفاظ قاسية ولكنها ليست جارحة أو مهينة.

ولم يكن يملك موهبة التعبير عن مشاعر الود أو ربما كان يرى أن ذلـك ليس ضرورياً أو أنه ترف لا ضرورة له وربما مفسد ولذا كان قليل الكـلام حيادي الوجه أميل إلى التجهم غير الملحوظ، حاد الصوت ذا هندام تقلـيدي مكتوم اللون عازفاً عن أي لهو، غير متابع لما يسرُّ الناس عموماً وبـالأخص فتاة صغيرة مثل زوجته كالأغاني والأفلام، وحتى في علاقته الجنسـية بزوجته كان يلزم نفسه وبالتالي يلزمها بأسلوب معين غير مرح، وإن لـم يخـل مـن التقديم، كان يصر على ظلمه المكان ولا ينبس بكلمة ويحبس أنفاسه وكأنه يراقب نفسه أو يشعر بمراقبة آخرين له.

يعـود من عمله ويبقى في البيت حتى صباح اليوم التالي، ومحدود العلاقات، لا خروج إلا بتصريح يحدد فيه ساعة الخروج وساعة الرجوع، كـرمه مـن الممكن الاختلاف حوله فيقال إنه حريص أو بخيل في حدود تجعل من الصعب وصفه على الإطلاق بأنه بخيل، ولكنه لم يكن سخياً، كل شيء بحساب ومقدار، يكره النوافذ المفتوحة ولذا فالبيت محروم من الهواء الساري بين نافذتين مفتوحتين، لا يبدي غيرته في موقف يتعلق برجل آخر وإنمـا فـرض نظامـاً للـتعامل مـع الغرباء يقضي بأن يكون التعامل للضروريات وفي أضيق الحدود وبأقل الكلمات، ويدخل في تعريف الغرباء كـل أقاربهـا من الرجال، ولكن غيرته كانت لا ترقى أبداً إلى الشك ولم يـتفوه على الإطلاق بأي كلمة نابية من النوع الذي يتردد عادة في مواقف الشـك والغيرة الزائدة. والتزمت الزوجة وإن أصابها حزن فقد حرمت من الحياة ذات المذاق الرائع التي عاشتها في حضن أسرتها، ولم تشك لأسرتها

وإن لاحظـوا غمها، ولم تحسد أبداً شقيقتها التي عاشت حياة ربما ألذ من الحياة التي عاشتها سابقاً، وإنما رضيت وقبلت وإن لم تسعد.

إن الأمانـة الفكرية لا تفرض أولا تصر على السعادة وإنما تصر علـى الالـتزام، تصر على القبول حتى بدون فرحة، الفرحة ليست شرطاً أساسـياً لأمانـة الفكر، ولا يعتبر هذا تناقضاً ولا يؤدي ذلك إلى صراع، الصراع هو مشاجرة بين رغبتين متعارضتين.

هـذه السيدة لا تعاني صراعاً لأنها حين تيقنت من أن أسلوب حياة زوجهـا يختلف عن الذي تمنته فإن تمنياتها ماتت، أي أن رغبتها في حياة سـهلة مـريحة انعدمت، بل وطنت نفسها على قبول أسلوب حياة زوجها، لـيس عن صبر من المحتمل أن ينفذ وإنما عن قناعة كاملة بأن من واجب الـزوجة أن تقـبل وأن تلتزم ثم ترضى بأسلوب حياة زوجها، ولا تسمح لنفسها بأن تصبح ضحية لصراع بين رغبتين متعارضتين.

لكن هذا لا يفرض أن تكون سعيدة، إلا أن شيئاً داخلياً شديد العمق كـان يجعلهـا تشعر بالطمأنينة الشديدة، شيء ما أدركت أنه طيب في هذا الـرجل، إحساس بالوثوق، شيء غير مرئي وغير محسوس لأنه خفي في أعماقـه، ولهذا لم تحرم من النوم العميق، النوم العميق دليل سعادة أو دليل طمأنينة، ولهذا لم تشك أبداً.

وأظهـرت الأيام كالمعتاد وجهاً غير حسن بالمرة، مرضت الزوجة مرضـاً خطـيراً، النجاة منه لا تكون إلا بمعجزة، وهنا تغير هذا الرجل تمامـاً، مـن النقيض إلى النقيض، بقي على صمته وإن حملت عيناه كل مشاعر الحب الفياض وحمل وجهه الألم والجزع والقلق والخوف، ونصح الأطـباء بجراحة في الخارج لم يكن يملك تكلفتها إلا إذا باع كل ما يملك

مـــن ميراث أبيه، وفعل دون تردد، وطار بها، ومع الأزمة والغربة انهار، ولـــم يكـــن يـــنام إلا وهي في حضنه إلى أن منعه الأطباء من ذلك لحرج حالتها، لم يتوقف لسانه عن الدعاء وعن ترديد كلمة واحدة إنه يحبها، هزل تمامـــاً وعصره الاكتئاب وإن بدا متماسكاً ليمنحها القوة والأمل، وأجريت الجـــراحة ونجاها الله وعادت متعافية إلى الوطن، وانتهت الأزمة، وانتهت مـــبررات ضـــعفه وتغير أسلوبه، فهل يعود إلى سابق عهده أم يستمر في أســـلوبه الجديـــد القـــائم على الإغراق العاطفي والمودة الظاهرة والتعبير المباشر.

ولم يمهله القدر ليختار، إذ قال القدر كلمته النهائية التي لا يكون لها أحياناً أي مبررات أو مقدمات، مات الرجل، نعم مات الرجل بدون أسباب، نام فمات.

تنويعات صيفية

الصـــيف له رائحة خاصة يتفرد بها دون بقية الفصول، ففي النهار هـــي رائحة البحر، وفي المساء هي رائحة النسيم المحمل بالياسمين، وعند الفجر هي رائحة الندى الذي تمسح بكل ما هو مزهر ومخضر.

ورائحة الصيف تهب عليك من الداخل مثلما تأتيك من الخارج، فمن داخلـــك تفوح رائحة الاشتياق للحب يفرزها جلدك ممزوجة بالعرق فتلهب الأبدان التي تقفز إلى الماء فتزداد اشتعالاً، فنار الوجد لا يطفئها إلا رشفات من رحيق وردي يكفيك أن تلامسه شفتاك فيكتسب حمرة الدماء التي تغلي داخل عروقك.

وعلى الشاطئ تسود لغة العيون، وإذا كنت تجيدها لن ترى إلا كلمة أحـــبك، وهي أول كلمة تعلمتها كل عين، ولذا فهي تجيد ترديدها، والعين تفهم العين، فإذا تجاوبت عين مع عين يعني إذا جاوبتها بنفس الكلمة أحبك تـــنخلع القلوب التي في الصدور، وتتشكل ابتسامة على الوجه تكاد لا تبين خوفـــاً من عين حسود، فيمضيان بعيداً وينطق اللسان بأهلاً، وفي غمضة عيـــن تتشـــابك أصابع اليدين، يمشيان ويمشيان، لا يباليان بحرقة الشمس، يتمهلان ، يغرسان الأقدام في الرمال، يسمحان بملامسة الماء إلى ما فوق الكعوب، ويتواعدان على المساء.

البراعم:

وفي ساحة تعرف باسم ملتقى العشاق يتقابلان، تغطت الأجساد بأرق وأجمل الثياب إلا من أجزاء تركت عارية عن عمد لتكشف عن نضارة وتلهف، اثنان، ذكر وأنثى، وكأننا فوق سفينة نوح، يا سبحان الله الذي وضع المغزى والمعنى كله حين دعا إلى سفينة نوح، من كل صنف اثنين، ليسا ذكراً وذكراً، وليس أنثى وأنثى، وإنما ذكر وأنثى.

وتسود المكان همهمات تعلو على صوت البحر القريب ويحملها الهواء فتبدو وكأنها مقطع من نشيد يردده كورس، إنها نفس الكلمات ونفس اللحن، إن للعشق لغة واحدة وكلمات محددة ولحناً واحداً، والهمس يصيح، وإن لم تستطع أذنك استراقة يكفي أن تنظر إلى عينيها، وهو يقترب من أذنها ويهمس، يكفي أن تنظر إلى وجهه وهو ينطق بكلمات غير مسموعة حتى لها، ولكن يكفي الاقتراب من أذنها، ستفهم هي ما يقوله لها، وتفهم أنت عن بعد محتوى همسه.

وماذا يمكن أن يقول لها إلا أحبك، أنت أجمل مخلوق على الأرض بل وفي السماء، بل وفي الكون، أقسم بذلك، وهو صادق في قسمه، العشاق لا يكذبون، القلوب البرعمية لا تعرف الكذب، وتتلكأ الشفتان بجوار الأذن وكأنه حديث طويل وهو ليس بحديث، وتزداد حرارة المكان رغم تلطف النسمات، ولا يكون هناك حل إلا أن تصدح الموسيقى حتى يكون الالتحام معلناً، تتراقص الزهور بمسرح سكرى بالهوى وروائح المساء ذات المصادر المتعددة، ويختفي نصف الحاضرين.

لا أحد يعرف أين ذهبوا، لعلهم نزلوا إلى الماء يسبحون باللباس الملائم.

عشاق بصحيح:

وعلى مسافة أبعد من ملتقى العشاق وفي اتجاه الأطراف وبعيداً عن المركز حيث تخفت الأضواء فلا ترى إلا من كان على مائدتك إلا بالكاد جلسوا اثنين اثنين، في الصيف وبعد رحيل النهار واقترابنا من الليل غير المسموح بإضاءته إلا بوجه القمر غير مسموح بأن يزيد أي تجمع على اثنين، ولابد أن يكونا ذكراً وأنثى، وأن يكونا عاشقين متلهفين، لا يصح عشق بدون تلهف.

التلهف هو قوة الجذب التي تضني حين يكون الاقتراب غير مسموح به فتضطرب الأبدان ويتشتت الخاطر وتزيغ الأبصار باحثة عن فرصة للمسة سريعة أو قبلة خاطفة وهذا يوحي بالحداثة، حداثة العلاقة، ما أجمل القبلات المسروقة واللمسات التي تبدو وكأنها عفوية، فغير مسموح في هذا الجزء من الدائرة بالسلوكيات البرعمية، هذا الجزء من مستعمرة الحب خصص لعشق الناضجين، حقاً إنهم ناضجون ولكن رائحة الصيف عند المساء تجعل العقول صغيرة من شدة السكر فلا نستطيع أن نجزم بحكمة التصرف، فالمتلهف معذور والمشتاق المحروم لابد أن نغفر له ذنبه، والأعمار تتباين إلا أنها لا تكشف عن حقيقتها بفعل الظلام ولأن عشق الناضجين يعيد خلق العاشقين من جديد، فيعود بقلب وليد وجسد مراهق وعقل حكيم، ما أروع أن يجتمع القلب البرعمي والجسد المتفرعن والعقل الناضج في إنسان واحد يهتف لمحبوبته بثقة أنا أحبك ويقول له بكل اليقين أنت أجمل إنسان في الوجود ويحلق معه إلى الأفق الأعلى بجناحين يجمعان ما بين القوة والحنان مطوفاً بهما في حدائق غناء يلفها السحر والأسرار، فذلك شعر وتلك موسيقى وهذا غناء وهنا الألوان وفوق ذلك

المعنى والفهم العميق، ثم يعودان إلى حيث يجلسان فيفاجئها بلمسة يقلقها موقعها أو يميل ويدنو وكأن شفتاه اصطدمتا دون قصد بوجنتها القرمزية.

عشاق ولكن قدامى:

وعلى المستوى الثالث من الدائرة وبعيداً نسبياً عن ملتقى العشاق جلسوا ومعهم أطفالهم، والأطفال يصرخون مرحاً ويلعبون قفزاً وعيون كل أب وكل أم مثبتة على الفلذات ومن وقت لآخر تحين منهم التفاته ناحية البحر، وتهب رائحة المساء مثيرة للذكريات، نفس المكان ولكن اختلف الزمان، ياه، يظل المكان هو المكان ويبلي الإنسان، لا يبقى أحد، الجماد أبقى، وسيظل البحر حتى ينشق القمر وتقع الواقعة، ومن كان برعماً بالأمس ثم نضج اليوم قد كبر، والأطفال يكبرون، وغداً الأحفاد يفدون، ولكنهم مازالوا اثنين اثنين، وحمل الهواء أغنية قديمة، ياه هي النظر في عينيها، عيناك في لون زرقة البحر، استسلمت، هبت رائحة البحر، والمساء والياسمين، وثمة رائحة أخرى انبعثت من جسده وجسدها، فأحسا بقوة، نهضا، عادا إلى البيت، أناما الأطفال في غير موعدهم ليتفرغا للحب.

ما قبل الخروج من الدائرة:

في المستوى الرابع من الدائرة، وبعيداً نسبياً عن المركز وفي منأى من البحر تحسباً من الهواء البارد الذي لم تعد تتحمله أعمارهما المتقدمة جلسا على أريكة بلا مسند للظهر، فظهر من الخلف تقوس ظهريهما، وضع يداً فوق يد وأمسك بالعصا التي توسطت ما بين رجليه وأخذ يدندن، بلحن عمره خمسون عاماً، ياه، سمعت هذا اللحن وكان عمري في العشرين.

طالعـــته بنظرة ذات معنى وقالت أما أنا فسمعته أول مرة وقت أن كــان عمـــري الخامسة، توقف عن ترديد اللحن وقال لها ولماذا التزوير، فأشاحت بوجهها بعيداً عنه قائلة بل أنت المزور، أتظن نفسك صغيرا، فقال لها بتعمد بل أنت التي تتصابين فزغدته في جنبه فضحك حتى لا يغضب.

ومرت امرأة تضرب بالودع، نادت عليها، استغرب من أمرها، ماذا تريديــن أن تعرفـــي يـــا مخرفة، أريد أن أعرف مستقبلي بعد أن أتركك، نظرت إليها العرافة، قالت لن تفترقا إلا بالموت، أخفت ابتساماتها، أما هو فقهقـــه، قامــا للتمشية، استندت إلى ذراعه واستندهو إلى عصاه، عند البئر توقفا، سألها من أد ايه كنا هنا، تنهدت شدت على أصابعه أكثر، استمرا في المشـــي، وعـــند مـــنعطف مرت سيارة مسرعة بجنون، فزع فوقع، انخلع قلـــبها، لا ينخلع القلب إلا في هذه المواقف، الحمد لله ربنا ستر، عادا إلى البيـــت، ساعدته في خلع ملابسه، الساق توجعه، ورم بسيط، مسحت بيدها عليها بحنان، انتقلا إلى الفراش ورغم ساقه التي كانت تؤلمه مع كل حركة إلا أنهما قضيا ليلة ممتعة بقدر ما تسمح به الإمكانيات.

خارج الدائرة:

في المستوى الخامس وخارج حدود الدائرة احتار ماذا يفعل أيجلس أم يمشـــي أم يعـــود إلى البيت، فضل ألا يعود إلى البيت حيث لا أحد إلا الجـــدران وقـــد شبع من تأملها، أخذ يمشي ببطء، ابتعد كثيراً عن الشاطئ خشـــية أن تطيح به نسمة هواء شابة، وصل إلى مكان مقفر، انقبض، عاد أدراجـــه حيـــث الناس، ثم حيث الزحام ما أحلى الناس وما أجمل الزحام، الـــناس هـــم الجنة الناس هم الحياة، يموت من يعيش وحيداً، الوحدة كالسم

بطـــيء المفعـــول، يمـــوت الإنسان حبة حبة، ما جدوى أن تتكلم دون أن يســـمعك أحـــد، ما جدوى أن تتنفس دون أن يلتهم الهواء من أنفك أحد، ما جدوى الملبس، ما جدوى الطعام والشراب، مر بالبئر، سأل نفسه من أد أية كـــنا هنا، عجب من كلمة كنا.. أنت الآن وحيد، قل: كنت. ما أروع كلمة كنا أين هي الآن، لقد ذهبت، كنا معاً في هذا المكان من ستين عاماً.

المكـــان هو المكان، أما هي فغير موجودة، وأنا موجود اليوم فقط، دمعت العيون، ما جدوى الدموع وما جدوى الحزن، حزن لا شاهد عليه لا قيمة له، حتى الحزن يحتاج إلى شريك، إلى شاهد، جلس على أريكة يجلس عليها اثنان، شاب وفتاة، تمني أن يتحدثا معه، كانا مشغولين بحوار هامس كانـــا متلاصقين بشدة، في زمانه لم يكن هذا مسموحاً، أفضى إليها الشاب بشـــيء في أذنها فضحكت بصوت عال، ضحكة أنثوية بل شديدة الأنوثة، ترى ماذا قال لها في أذنها، لاشك أنه يدعوها لشيء ومضى الشاب والفتاة دون أن ينتبها لوجوده.

مـــرت بـــه فتاة صغيرة تبيع شيئاً، استوقفها، أغراها بالشراء، أخذ يـــتحدث إلـــيها، أســـئلة لا معـــنى لها، ضجرت الفتاة من التعطل، تركته ومضـــت، اشتد الهواء فقرر العودة، السيارات العابرة تكاد تطير، مستحيل أن يعبر الطريق بمفرده، تقدم منه رجل وعبر به، أراد أن يشكره ولكنه لم يمهله، صعد إلى بيته، أراد أن يأكل شيئاً فتكاسل، أراد أن يشاهد فيلماً في التليفزيون فتكاسل، وحين أراد أن ينام شعر أيضاً بعدم الرغبة.

القبلة

فجـــأة شـــاهد الحدث.. استغرق تطلعه ثانيتين أو ثلاثاً على الأكثر وأطـــرق بعدها ناظراً إلى حيث موقع قدميه.. وهم بأن يترك المكان ولكن قدمـــيه لم تطاوعاه.. ولكن عينيه تحركتا ضد إرادته صوب الحدث فلم ير شـــيئاً.. فظـــن بنفسه الظنون، ولكنه هدأ واطمأن.. عاود النظر في اتجاه آخـــر.. وفجـــأة وقع حدث مطابق تماماً.. هكذا وبدون مقدمات.. ما جدوى المقدمـــات لحدث كهذا.. مهما كانت المقدمات ما استطاعت أن توحي بأن مـــثل هـــذا الحدث سيقع.. هذا الحدث لا يمكن أن يقع فجأة.. تماماً مثلما تـــنفجر قنـــبلة.. هذا الانفجار لا تسبقه أي مقدمات.. وأحياناً يموت إنسان فجـــأة وأيضـــا بـــدون مقدمات.. ربما هو سائر في الطريق أو هو يتناول طعامـــا أو حتى وهو نائم.. وما ضرورة أن يكون للموت مقدمات!! إلا أن انفجار قنبلة ينزع القلوب من مواضعها.

والموت المفاجئ يغرق النفس جزعا وإشفاقاً.. أما الحدث الذي رآه فقد أوقف عقله تماماً أو كاد يكون بلا عقل.. في هذه المرة الثانية لم يُطرق وإنما أمعن النظر.. وتأكد من استمرارية الحدث.. وشهق.. وكاد يصرخ.. وما جدوى الصراخ وصخب الطريق يعلو على أي صوت.. ومن سيلتفت إلـــى صراخه والناس معظمهم قد رأوا الحدث ولم يتوقفوا عنده بل مضى كـــل لحـــال سبيله وكأن شيئا لم يقع.. ولكنه قرر أن يخرج أي صوت من

حنجرته ليثبت أنه لا يحلم.. في الأحلام لا يستطيع الإنسان أن يصرخ وهو خائف.. تصاب إرادة الإنسان بالشلل وهو يحاول أن يفر من خطر يلاحقه.. ويتيقظ الإنسان عند هذه اللحظة.. ويستمر خوفه لثوان ثم يشعر بالارتياح حين يتأكد أنه كان يحلم.

وأمام هذا الحدث المفاجئ لم يستطع أن يصرخ ولم يستطع أن يتحرك تجاهه لمزيد من التأكيد.

ولماذا يتأكد وقد سبقه حدث مشابه منذ دقيقة واحدة.. في المرة الأولى لم يصدق نفسه بل ظن بعقله آفة حيث وقع الحدث فجأة وانتهى فجأة.. ولكن نفس الحدث يقع أمامه الآن وبنفس الطريقة المفاجئة بدون أي مقدمات.. ولكنه استمر.. ثانية.. ثانيتين.. خمس ثوان يا للمصيبة.. ثلاثون ثانية بالتمام والكمال.. ثلاثون ثانية تكفي أي إنسان للتأكد من مدى ملامسته للواقع.. ولكن ما أقلقه عدم قدرته على إخراج صوت.. أي صوت حتى ولو كان كحة مصطنعة كالتي يصدرها الناس في قريته وهم يهمون بدخول مكان غريب لينبهوا أصحابه إلى قدومهم ثم يعقبوها بكلمة "يا ساتر".. والقصد من ساتر هي ستر ما يود أهل الدار ستره من أحوالهم وشئونهم الخاصة وما يودون ألا يراه أو يطلع عليه الضيف القادم.. هكذا الأصول.. هكذا الواجب.. هكذا الأخلاق.. ولكن ما يحدث أمامه الآن إنما يقع في الهواء الطلق وتحت السماء مباشرة.. وعلى قارعة الطريق وألف أو يزيد من المارة يعبرون.. فما جدوى الكحة أو يا ساتر.. ما جدوى الأصول والواجب.. أي أصول وأي واجب يجديان مع هذا الموقف.. أي شيء سيتم ستره.. لكنه استطاع في النهاية وبعد جهد أن يتمتم بكلمة يا سائر.. قالها من قلبه.. التجأ بها إلى الله فهو الستار حينما لا يريد الإنسان أن يستر

نفســـه.. هو الستار حين لا يفضح الإنسان بل يغطي فعلته التي لو عرفت لأســاءت إليه.. وكم من عيوب سترها الله.. وكم من أفعال مخزية حجبها الله عن عيون الآخرين.. وخطر له خاطر أراحه.. هدأ بعضاً من رَوْعه.. ألا يحــتمل أنهم يصورون لقطة سينمائية في هذه اللحظة.. نعم.. نعم.. إنه مجرد تمثيل.. لا يمكن أن يكون حقيقة.

الحمــد لله إنـــه ليس حقيقة فالحقيقة تجعل الإنسان يفقد عقله وهو يحــتاج إلـــى هذا العقل سليماً ليستكمل دراسته.. وتقدم خطوات.. وتلفت حوالــيه فلــم يجد كاميرات وأعاد النظر صوب الحدث وبطليه فإذ هما قد انصــرفا. لم يستطع أبداً أن يلمم نفسه وفشل تماماً في أن يستعيد هدوءه.. واستمر في وقته مستنداً إلى الحائط وفي نفس الموقع الذي رأى منه الحدث الأول والحدث الثاني.

كان هذا الشاب الذي هو دون الخامسة والعشرين قد وصل لتوه من بلدتـــه التي تقع في أقصى الجنوب.. كانت بيده حقيبة واحدة ولكنها كانت مــن الضخامة والثقل بما لا يسمح له بحملها سائراً أكثر من دقيقة.. فكان يتوقف عن السير من حين مستنداً بظهره إلى الحائط ومراقباً المارة..

لــم ينهكه السفر بالطائرة على مدى خمس ساعات متواصلة سبقتها ليلة من الأرق والاستعداد بقدر ما أنهكه الفزع خشية ألا يعثر على عنوان الحجرة التي سيسكنها في هذه العاصمة الأجنبية التي يجيئها حاملاً في قلبه أمــلاً مدعماً بطموح ظل يدخره على مدى سنوات عمره ليصير باحثاً في العلــوم الطبيعية. وبينما هو في إحدى وقفاته للراحة شاهد الحدث الأول: شاب وفتاة يستغرقان في قبلة بينما هما واقفان على الرصيف المقابل.. ثم تــلاه الحدث الثاني بينما يهم بالتحرك من مكانه.. ولكنه لم يتحرك.. ظل

بمكانـــه لـــيس انـــتظاراً لحدث ثالث مشابه وإنما لأنه فقد السيطرة تماماً.. تصبب عرقه في هذا البلد البارد..

نظـــر إلى السماء فخنقه الضباب الكثيف.. هجم المساء بينما النهار لـــم ينتصف إلا منذ ساعات قليلة.. شعر بأنه مسجون.. وداهمته رغبة في الـــبكاء ولكنه لم يفعل أو أنه لم يستطع.. وسيطرت عليه رغبات اندفاعية غريـــبة كأن يتجرد من ملابسه تماماً.. ولم ينزعج من الفكرة.. وما الفرق بيـــن التجرد من الملابس وتبادل قبلة بين رجل وامرأة.. الحالتان نوع من التعري.. وربما لن يلتفت إليه أحد وهو يمشي عارياً وربما بعد قليل يطالع رجلاً أو امرأة بدون ملابس.. وتذكر أنه سمع شيئاً عن مستعمرات العراة.

ولـــم يستطع أن يخفي نظراته الزائغة عن رجل الشرطة الذي توقع أن يكـــون فـــي أزمة فتقدم منه باسماً عارضاً المساعدة.. ودله إلى حيث يســـكن ونـــام يومين متواصلين ربما هروباً من مواجهة الشوارع.. وكان عليه أن يخرج لأسباب متعددة.. وانتظم في دراسته إلا أن الرغبة في النوم المستمر لم تفارقه منذ تعرضه للحدث الجلل رغم أنه شاهده بعد ذلك مئات المرات.. اثنان يتبادلان القبلات في الطريق العام دون أن يلتفت إليهما أحد ودون أن يعترضـــهما الشرطي.. ما هذه البلاد العجيبة.. سأل نفسه.. وقرر أن يـــدرس الأمـــر بعناية.. ورأى أن دراسته أحوال البشر أهم من دراسة العلوم الطبيعية.

خصص ساعة من وقته لمتابعة القبلات.. واكتشف أن أفضل مكان لهـــذه الدراسة هو الحدائق العامة.. يجلس ممسكاً بكتاب يتظاهر بقراءته.. ويخـــتلس الـــنظر إلى العابرين ويدخل الحديقة شاب وفتاة.. يمران بجانبه دون أن يـــرياه.. ربما يجلسان على مقربة منه.. يستندان معاً إلى شجرة..

فـــي الغالب يفضلان الجلوس على الأرض.. يطوقها بذراعه.. يتكلمان.. يضحكان.. يستمر ذلك بعض الوقت.. يشربان شيئاً أو يأكلان.. تطوقه هي هـــذه المرة بذراعها.. ثم تجذبه إليها.. يطالعها بعينين باسمتين.. ثم تتحول البسمة إلى وله.. وتطبق هي على شفتيه.. لا يوجد عنف.. ولا جنون زائد ولكـــن كأنهمـــا يتصافحان.. بعض القبلات تستمر ثواني.. وبعضها يطول قلـــيلاً.. ويعـــرق هـــو.. وينتفض.. وتتسارع أنفاسه.. ولكنْ أي من هذه العلامـــات لا تبدو على الشاب أو الفتاة.. ثم ينتهيان من القبلات.. يعاودان الحديث.. ثم ينصرفان ويستغرق هو وقتاً ليعود إلى حالته الطبيعية.. وفي أحيان أخرى يذهب إلى محطات المترو تحت الأرض.. آلاف من البشر.. زحـــام. الوضع هنا مختلف حيث يتلاصقان ويمعن هو النظر بحثاً عن أي حركة.. ولكن ياللعجب التركيز يكون على الشفاه.. قبلات وقبلات.. بنفس الطـــريقة.. وكأنمـــا يتصافحان.. في بعض الأحيان تطول القبلة أكثر مما ينبغـــي.. يبدو عليهما التأثر.. يتناجيان.. أما الجسدان المتلاصقان فلا يبدو علـــيهما أي شيء غير طبيعي.. بينما هو يكون في حالة غير طبيعية.. ثم يصـــعد إلى إحدى عربات المترو.. يجلس أمامه رجل وامرأة في منتصف العمـــر.. ربمـــا تعديـــا الأربعيـــن.. يبدو أنهما زوج وزوجة إذ توجد في حوزتهمـــا أكـــياس ربمـــا تمتلـــئ بالطعام.. تنظر إليه بحنان.. يهمسان.. يتبادلان قبلة سريعة.. ويندهش..

مـــا فـــائدة هـــذه القبلة السريعة.. وأحياناً تطول القبلة عدة ثوان.. وتنتهي بأن يمسك بيدها ويحملقان للأمام.. ثم تخرج هي كتاباً وتقرأ فيه.. ويـــتذكر أمـــه وأباه.. ربما في نفس عمر الرجل والمرأة.. اللذين يجلسان أمامـــه.. لـــم ير أباه يقبل أمه على الإطلاق.. يا للكارثة وكيف يمكن أن

يحــدث هذا هو ذاته لم ير من أمه إلا وجهها بينما رأسها مغطى دائماً ولا يخــرج من جلبابها إلا أصابعها.. بل ربما لم ير أمه على الإطلاق تبتسم لأبيه ابتسامة ذات معنى. وتدريجياً اختفت عنده هذه الظواهر الفسيولوجية التي كانت تنتابه وهو يتابع القبلات.. اصبح محايداً من الناحية البيولوجية فقلــت متاعبه وأتاح له ذلك مزيداً من التأمل والدراسة.. ماذا يجدي دراسة خواص المواد ونحن لم نفهم بعد خواص الإنسان.. من قال إن الإنسان هو الإنســان.. بل هناك ألف إنسان.. الإنسان غير الإنسان.. أمي مثلاً مختلفة عن كل نساء الأرض.. وشقيقتي مختلفة عن كل بنات الأرض.. فالأرض غير الأرض.. والمناخ غير المناخ.. والمعايش غير المعايش.

استــتغرقت القــبلات أكــثر وأكــثر.. وقام بتصنيفها.. مرة حسب الأعمار التي كانت تتراوح ما بين الخامسة عشرة.. أو أقل قليلاً والسبعين أو أزيــد قلــيلاً.. لم يصنفها حسب المدة فبعضها يستغرق عدة ثوان..لكن أقصاها كان دقيقة واحدة.. في إحدى المرات النادرة طالت القبلة إلى ثلاث دقــائق تصــور بعدها.. أن كارثة ستحدث لكن الكارثة لم تحدث وانتهت القــبلة مــثل أي قــبلة أخرى.. ثم يصنفها حسب المكان فبعضها يقع في عرض الطريق وبعضها في محطات المترو تحت الأرض وبعضها يتم في الحدائــق العامـــة. ولكن الشيء الذي تعجب له أنه لم ير أي قبلة ولو مرة واحــدة فــي فناء الجامعة بينما نفس الطلاب والطالبات يتبادلون مثل هذه القبلات فور ابتعادهم عن الأسوار.. وذلك جعله يراجع بعض النتائج التي توصــل إليها من دراسته لموضوع القبلات فاعترف بوجود الأسوار.. كما أنــه صنفها حسب وقت وقوعها فوجدها نادرة أو تقريباً غير موجودة في الصــباح، وقليل منها وقت الظهر وكثير منها في المساء بعد الخروج من

العمـــل.. وتكثر بشدة في عطلة نهاية الأسبوع إلى الحد الذي يندر فيه أن نجد شفاهاً متوقفة أكثر من دقيقة عن التقبيل.. ويكون التوقف عادة لالتقاط الأنفاس..

وأراد أن يطـــور بحـــثه أكـــثر لمعرفة العلاقة بين الذين يتبادلون القبلات.. فوجد صعوبة في الوصول إلى هذه المعلومة.. ولم يكن أمامه إلا أن يراقب اثنين بعينهما ويتابع خطواتهما.. فاكتشف أولاً أنها لا تقبل أحداً غيره وهو كذلك لا يقبل واحدة غيرها.. ثم وجدهما متلازمين..

فـــأراد أن يعـــرف أكثر بعد أن توقع أو أنه عرف يقيناً أن العلاقة تصل إلى أقصى مداها خلف الأبواب المغلقة.. كان أهم سؤال يحيره وأهم نقطة يجدها جديرة بالبحث ومفتاح الحدوتة كلها والذي سيفتح الأبواب نحو الفهـــم المتكامل الأعمق هو: ما الفرق بين هذه القبلات التي يتبادلانها في الطـــريق العام وتلك القبلات الأخرى التي يتبادلانها خلف الأبواب المغلقة والتي تسبق الأحداث الجسمية؟

وبالـــرغم مـــن أنـــه نجح في التواصل إلى نتائج مهمة من أبحاثه المتعلقة بخواص المواد إلا أنه وبعد مرور أربع سنوات كاملة في هذا البلد لم يفلح في العثور على الإجابة عن سؤاله المهم المتعلق بالفرق بين قبلات الشارع وقبلات السرير. وفي مرة هداه تفكيره إلى أن أفضل وسيلة هي أن يجرب بنفسه أي أن يدخل في علاقة مع زميلة.. ولكنه استناداً إلى المنهج العلمـــي في البحث عرف أنه سيصل إلى نتائج مضللة لأن أي بحث علمي يهـــدف إلـــى التعرف على نقطة معينة يستوجب تثبيت العوامل الأساسية ويبقى عامل واحد متغير وهو النقطة التي نود استكشافها.. ولهذا لن يصلح هو كطرف في موضوع دراسة الفرق بين نوعين من القبلات.

ولـذا كان عليه أن يلجأ إلى منهج علمي آخر وهو جمع المعلومات عـن طريق المقابلة الشخصية.. أي يقابل أكبر عدد من الناس ويسألهم نفس السـؤال ثـم يتعامل مع البيانات التي جمعها بطريقة إحصائية يخرج منها بنتيجة لها دلالة.

ولكن وجد أن هذا أمر صعب جداً بل يكاد يكون مستحيلاً فالسؤال يسبب حرجاً كبيراً وهو لا يجرؤ أن يسأله.. كيف يسأل عن الفرق بين قبلة الطريق وقبلة السرير.

وضـحك من نفسه حين خطر على باله المنهج العلمي الثاني الذي يسـتخدم فـي مـثل هـذه الحالات وهو الملاحظة.. أي يراقب هو الذين يتـبادلون القـبلات في الحالتين المختلفين ويسجل ملاحظاته.. وقد يحتاج الأمر إلى أجهزة القياس الفسيولوجي التي تقيس سرعة النبض وضغط الدم وكمـية العرق وبقية الظواهر الفسيولوجية الأخرى التي تصاحب القبلات في الحالات المختلفة.

وترك جانباً فكرة أن تأتي المعلومة عن طريق بحث علمي منهجي وقرر أن يسأل السؤال لشخص واحد فقط يكون قريباً منه بحيث يتقبل منه السؤال ويرضى أن يعطيه إجابة شافية.

ولم يجد أمامه غير السيدة العجوز التي يسكن عندها والتي تجاوزت الثمانيـن فأجابـته بابتسامة تكشف عن التذكر لفترة مثيرة من حياتها.. لا يوجـد أي فـرق على الإطلاق بين قبلة الطريق وقبلة الفراش إلا أننا في الطـريق نعرف حرمته وأنه يجب ألا نخدش حياء الآخرين ولذا نتحكم في أنفسنا. .. نظر إليها دون أن يفهم شيئاً.. وقرر أن يهمل هذه النقطة بالذات من بحثه رغم أنها لب الموضوع.

أول ليلة في رمضان

مـــا أن انتهى من صلاته حتى جاءه البشير ينبئه بأن رمضان غداً، فاجــتاحه الفــرح، عادت أيام السرور، وتردد من المذياع أغنية الترحيب المعهــودة فازداد فرحاً، إنها أغنية لا يسمعها إلا مع اللحظات الأولى لهذه المناســبة مرة كل عام ومنذ أربعين عاماً أو أكثر حين كان في السادسة أو الســـابعة، حقـــاً لقــد هل الشهر، هرعت الأسرة إلى التليفزيون ولكنه آثر ملازمـــته للمذيـــاع، مدد جسده على الفراش وأطفأ الأنوار وأغمض عينيه وغاص في يمّ الذكريات، ثم تواشيح معروفة أعقبت الأغنية، تواشيح نادراً مـــا تـــذاع خارج رمضان، فامتلأ قلبه بالخشوع فعايش مزيجاً غريباً من الفرحة والخشوع لا يعانيه عادة إلا مع اللحظات الأولى لأي حدث يهزه أو يشده إلى الماضي السحيق.

ودارت عجلة الزمن إلى الوراء فإذا هو في السادسة أو السابعة من عمره، هذا أبي وهذه أمي وهذا أخي الأصغر وثمة فرقعات لا يخطئ أحد مصـــدرها، إنهـــا إحـــدى وسائل الإعلان عن مجيء الشهر لمن لا يملك مذياعـــاً، وتتصـــاعد مع الفرقعات أصوات تغني من صغار يسهمون في الإعـــلان عـــن ثبوت الرؤية، وهي رؤية العين المجردة للهلال، ثم تتبعث جلبة من الشارع الذي يموج بحركة مفاجئة تلازم الإعلان وكأن الناس قد

فوجئوا، يروحون ويغدون، ويسعون لشراء ما يلزم من طعام خاص ارتبط بالشهر، طعام لم يتغير أبداً، مفردات ثابتة، وجبات مقررة في كل بيت، لا تخلــو مائدة منها، يا سبحان الله، هذا أول مظاهر المشاركة والوحدة طعام بعيــنه يأكله الجميع.. ويستأذن في أن يخرج إلى الشارع ويلقى معارضة غــير حازمة من الوالد تشجعه على الخروج أكثر مما تمنعه، ويكاد يطير مــن الفــرح، لا يخــرج لأصدقاء، وإنما يمضي وحيداً هائماً، يصل إلى المــيدان ويقترب من حوافي الجامع الكبير، صخب ومرح، وأناس كثيرون وأضواء ووجوه مستبشرة. ويصفو الجو، كل شيء منعش، كل شيء سار، ثمــة سكينة تغمر النفس وثمة حب يفيض في كل اتجاه كإناء امتلأ لآخره وفــاض، ويعود أدراجه حيث ابتعد الليل عند أكثر من منتصفه، وهذا أمر غريــب أن يعود في هذا الوقت المتأخر، شيء لا يتكرر إلا مرة كل عام وفي أول يوم بالذات، بل هي أول ليلة، فاليوم ذاته لم يجيء بعد، إنه غداً، غداً يبدأ الصوم.

ويعلــو صوت يوقظ الناس وما هم بنائمين، في هذه الليلة بالذات لا ينام أحد، الفرحة تنبه كل الحواس فيستعصي النوم، ولكن الرجل ومساعده يصــران علــى الــنداء، أصــحى يا صايم وحد الدايم، علامة أخرى من علامات الشهر، إنه من الثوابت، وما أروع الثوابت، كل شيء يتكرر مثلما كان يحدث من عام ومن عشر سنوات ومن مائة سنة، ومنذ ألف سنة، إنه نفس النداء، وهذه الثوابت في ذاتها هي خروج عن المألوف، ذلك المألوف الــذي ســنمناه على مدى إحد عشر شهراً، ويتزاحم كل شيء من أجل أن يــأخذ مكانه على خريطة الثوابت. لابد من معايشة كل شيء في أول ليلة، أول لــيلة هــي أحلــى ليلة، يتم فيها الشحن إلى أقصى مدى، إنه التلهف

والشـــوق والجوع والترقب والتطلع والانتظار، إنها الليلة التي تؤذن بكسر الروتين الرهيب الذي يزهق النفس.

ويـتعمدون أن يـتأخر وقـت الطعام حتى لا يأتي الجوع مبكراً، ويتـناهى إلى السمع اللحن المميز لبرنامج السحر والخيال وكل ليلة حتى ألـف لـيلة، وصـاحبة المقدمـة صوتها مميز أيضاً، أهم ما جاء في هذا الصوت الكبرياء والثقة بالنفس واليقين بأن لها سحراً ودلالاً يخلب الألباب فيرجئ الملك موعد قتلها، ليلة بعد ليلة، ثم التواشيح التي تمهد لقرب موعد الصـلاة، فننكـب علـى الطعام، نأكل أكثر مما نطيق، ومفردات الطعام معروفة وثابتة، جميع الأمة تأكل نفس الطعام، وتحين الصلاة، ليست ككل صلاة، الصلاة التي تحدد انتهاء ليل وطلوع نهار، ثم فرقعة ضخمة نمتنع بعدهـا عـن الطعام، وفي هذه اللحظة بالذات نشعر بالعطش. نندم لأننا لم نسارع لنرشف شفطة ماء، ونقرأ القرآن وننام، وقراءة الليلة لابد أن تكون بصـوت مرتفع عن العادة، أيضاً هي عادة مألوفة، فبداية أول يوم لابد أن تكـون قـرآنا يسـمعه الجميع ويشارك فيه الجميع، وننام بقلوب راضية ونفوس مطمئنة، وتصحو على فرحة يوم مختلف، المواعيد متأخرة ساعة، الـناس متراخون، يريدون أن يستمتعوا بميزة أنهم صائمون، العمل القليل دلـيل صـيام، والانشغال يكون بمائدة الإفطار، يطوف بها الخيال وتتماثل الصـور تمـلأ فراغات العقل وتثير اللعاب، يضبط الإنسان نفسه في هذا الموقف فيتراجع ويستغفر.

فالصـائم يجـب ألا يشتهي طعاما، هذه كانت أول زلة، ولكن باب الاستغفار مفتوح على مصراعيه، ثم تعبر امرأة النظرة الأولى لك والثانية علـيك، ولكن في رمضان يجب ألا تكون هناك نظرة أولى، ولكن العين لا

يمكـن أن نـتحكم في اتجاه حركتها، ويتحرك في النفس شيء إنه ميل إنها طبيعـته التي يستهويها الجمال، ويتحرك شيء في داخله، ولكن ألماً أكبر كوخـز الإبر يدفع بعينيه بعيداً إلا أن الفكرة تظل عالقة برأسه جهداً، جهداً إرادياً، إنها الرغبة الأكيدة في أن يسمو وألا يفسد صيامه.

يسـتطيع في النهاية أن يمحو الصورة وأن ينتزعها من ثنايا مخه، ويفرح بانتصاره، الفضل لرمضان، روح رمضان..

وتـأخذ الشمس في تراجع، وتزيد مساحات الظل على الأرض، لقد اقـترب الموعـد، وتشرئب النفوس تطلعاً وترقباً، وتتابع الأحداث بنصف وعي، الوعي الأكبر يكون في إعداد الولائم ومتابعة مرور الوقت، ومازال المذيـاع هـو الذي يأخذه تماماً، آه من ذكريات تلك اللحظات التي تسبق أفـول الشـمس، ويـبدو الجـنون في الشارع على أشده، لابد من اللحاق باللحظـة الأولى، وتحدث فرقعة ضخمة لا يكون بدونها الإفطار حتى لو أشـارت السـاعة إلـى الموعد الصحيح، لا وألف لا، لابد من المدفع، لا إفطار بدون مدفع، ولا صوم بدون مدفع، ما أروع الثوابت، منذ عام ومنذ ألف عام.

ويهـدأ الكون لحظة، ويعلو الأذان، صاحب الصوت الساحر يرفع الأذان، فيرتفع به ويرتفع بنا، لحظة العمر في حياة أي إنسان، لحظة أنني صـدقت معك يا خالقي فصمت لك، لا أحد على يقين من صومي إلا أنت ولـذا فالجزاء منك أنت، ولابد من الشراب القمري المألوف، ثم التمر، ثم الصلاة، ثم اللقيمات الأولى، ثم التخمة، ولكنها العادة، عادة أن تكون متخماً وفـي حالـة يرثى لها من صعوبة التنفس، ولكن النشاط يسري في الخلايا مرة أخرى فتتيقظ كل الحواس وتعود الدماء لتتوزع بعدالة على كل الجسد

وتــبدأ انطلاقة جديدة، نفس الفرقعات المتناثرة، وغناء الأطفال، وانطلاق الكــبار فــي كــل اتجاه، وهي أماكن ثابتة أيضاً، وأماكن مشهورة، أماكن معروفة بعينها، ورغم أنها متاحة طوال العام إلا أن زيارتها لا تحلو إلا في هــذه الأيــام، ما أحلى الشاي والدخان مخلوطاً بصوت الذاكرين الحامدين المستغفرين، وتحدث مضايقات من شدة الزحام، وتفلت الأعصاب، ويتلوى اللســان كالأفعى بالسباب، ويتدخل أحد الصالحين، وينادي رمضان كريم، فــتقع الكلمــة ككــرباج على نفوس المتشاجرين، فيتراجعون، ويتسامحون، ويعتذرون، وتكاد تنشأ مشاجرة أخرى لأن كلاً منهما يريد أن يسبق الآخر بالاعتذار من فرط التسامح الذي يلف بالأنفس.

ومــا أحب قط التليفزيون، ظل عاشقاً للمذياع مذياع رمضان ليس كمثل أي مذياع، مذياع رمضان، هو رمضان ذاته، وينتظر بشوق شديد كل لــيلة ويتمنى أن تستمر ألف ليلة ويظل صوت موسيقاها يصدح في وجدانه، إنــه عالم مسحور يوقف أنفاس الكبار مثلما يفعل الصغار، ويستمر السهر حــتى اللحظة الفاروقية، واستقبال الصباح يأتي متأخراً، والقرآن يعمر كل جنــبات الكــون، والصلاة تقام في كل ركن، وتعم الطهارة ويصفو الهواء وتطيب النفوس وتخشع الأفئدة وتتوارى الشهوات إلا من خفقات بريئة حتى وإن كانت غير بريئة فإنها سرعان ما يمكن الخلاص منها.

وعلى كل حال فهي مرتبة لا يمكن الوصول إليها إلا في رمضان، والأمــر نسبي، إلا أن التطهر يصل مداه والإرادة تقوى على منع أشياء لا يمكن منعها في غير رمضان وذلك لأن رمضان رمضان القرآن، ولذا فإن قــرآن رمضان يقف حاجزاً ضد أي ميل أو هوى، والنفس أمارة بالسوء، والســوء الــذي بهــا يقاوم رمضان يطوف بالنفس بعيداً في عالم الجمال

المحــرم، ولكن ساعد رمضان أقوى، فيشدنا إلى الناحية الأخرى، فيحدث شبه تمزق، ولكن الإنسان في النهاية يفرح لانتصاره والفضل لرمضان منذ أول ليلة في رمضان.

ألوان من الحياة

همـــا لاشـــك حياتان، حياتنا الدنيا، وحياتنا في الآخرة، أي ما بعد الممـــات، ولـــولا ذلك لما فرح بعض الناس بالموت وسعوا إليه مستبشرين طامحيـــن إلى الخلود والأبدية، متفيئين بظل الله مباشرة، راجين الدنو دون أن تعشي الأبصار، آملين اللقاء بالأحباب دون خشية فراق وما أقسى فراق من أحببانهم في دنيانا.

لقاء الحبيب:

لا يدفـــئ إنســـان واحد فراشاً، الدفـء يصنعه اثنان، ليسا رجلين، وليســـا امرأتيـــن، ويبدو أنه حينما تختلّط أنفاس امرأة مع أنفاس رجل، ثم يعـــاد استنشـــاق هذا المزيج فإن ثمة حرارة تنبعث من الرئتين قاطبة نحو القلب فتدفئه، وحين يدفأ القلب حتماً سيسرح الدفـء إلى كل الجسد مع كل قطرة دماء.

فـــي هـــذا الشـــتاء حرمت من هذا النوع الخاص من الدفـء الذي اعـــتادت علـــيه طوال خمسين سنة من عمرها هي عمر زواجها من ذلك الـــرجل الـــذي مات على أعتاب الصيف الماضي وإذا ببرودة هذا الشتاء تداهمهـــا دون أن تكون مسلحة بهذا الرجل في فراشها وفشلت كل وسائل التدفئة الصناعية في أن توقف ارتعاش أوصالها واصطكاك أسنانها.

كان برداً غير محتمل صاحبه صمت قاتل، ولعل الصمت الذي لف البيت كان أحد أسباب عصيان الهواء ورفضه لتلك الآلية، ولا ألف مدفئة تستطيع أن تقاوم برودة هواء غير مشبع بأنفاس رجل، هكذا قالت المرأة الوحيدة التي تجاوزت السبعين لنفسها وهي تدفس رأسها بين وسادتين وتلملم الأغطية الثقيلة الفاشلة حول نفسها، وفي هذه الليلة بالذات أدركت أن دفء المكان لم يكن فقط بسبب الهواء الذي كان يجول بين دروب رئتين ويخرج ساخناً وإنما كان أيضاً بسبب ذلك الصوت الذي كان يصدره وهو نائم ويطلق عليه الشخير، فالشخير دليل الحياة، وفكرة الحياة ذاتها تبعث على الدفء أما الصمت فهو دليل موت، وأهم دليل للموت هو انعدام الحرارة، إذن فكرة الموت ذاتها هي التي تحقن الجليد في العروق.

يالعظمة الفكر عند الإنسان، الفكرة أقوى من أي وجود مادي، فتعساً لمدفئة حديثة تعمل بالكهرباء أو حتى بالذرة بينما هي ذاتها في حاجة إلى من يدفئ سطحها البارد ولم تعد الحياة محتملة، لقد تصدع كل شيء داخلها وخارجها ولا مفر، فهي لا تدري ماذا تفعل في هذه الحياة ولا تدري ماذا تفعل بهذه الحياة، البرد يحاصرها والصمت يطبق على كل حواسها، ودبت الفوضى في هذه الحواس، يا وقت امض، أنا في عجلة، الدقيقة عندي الآن تساوي ألف عام من الانتظار.

اقترب من الهدف، بقيت ثوان، لم تشتت ذهنه الفرحة بل ازداد تركيزاً وتحديداً للهدف، الإصابة الدقيقة تكون مفجعة أكثر، اقترب أكثر، تبقت ثانيتان تردد في سمعه لحن قادم من السماء شديد الشجن، مزيج من الوداع والاستقبال، لحن من نوع غريب جديد، إنه غير الألحان التي تسبق جنازات المهمين على الأرض، ألحان الأرض للوداع فقط، المغادرة،

النهاية، أما اللحن الذي سمعه وهو في السماء فهو لحن الأمل، لحن الاستقبال الحافل، لحن الترحيب بالقدوم لحن لا يمكن أن يصدر إلا عن ملائكة أُوحى لها حيث يلهمها الله، تبقت ثانية واحدة، يا فرحتاه، يا سعداه، الحمد لله، السلام عليكم ورحمة الله.

فأصبح جلدها هو الذي يستشعر الصمت، نعم أصبح الجلد أذاناً تتلهف على صوته الذي اختفى، عجبي على جلد يسمع وأذن تشم وأنف يرى وعين تتذوق، وهذا لا يحدث إلا مع الحرمان، إنه زئير الجوع للحب، هنا تفقد الحواس تخصصاتها فتتلمس أي مثير يكون مصدره الحبيب، مجرد رائحة مثلاً تلتهمها كل الحواس مجتمعة ولا يستطيع أن يقتنصها الأنف وحده، مجرد صوته مثلاً تتسابق ناحيته كل الحواس مجتمعة ولا تجرؤ أن تلتقطه الأذن وحدها.

لم تستطع أن تنام هذه الليلة، مدت يدها في الظلام يمينها حيث كان يرقد فوجدت مكانه شاغراً رغم أنها كانت تعرف أنه قد رحل، هل كان أملاً في معجزة أم خيالاً قوياً يجسد ما هو غير موجود فيصبح موجوداً، ارتدت يدها خائبة، ولكن وبدون يأس أمعن خيالها في ضلالاته فصور لها أنه قام للحمام وسيعود إلى جوارها بين لحظة وأخرى، ولكنه لم يعد ولم يكن هناك ما يشير إلى وجوده داخل البيت من صوت يحدثه عن تعمد أو مصباح يضيئه تعنتاً وذلك حين يرغب في إيقاظها لحاجة في نفسه.

وحين يئست من عودته نهضت من فراشها ودارت في حجرات البيت ثم عادت حيث كانت خائبة.

وزاد إلحاح حواسها على تلمس أي إصداراته، ولكن لا شيء، لا شيء على الإطلاق، ليس من أثر، لا شيء يدل على أنه عاش زمناً في

هذا المكان إلا ملابسه وأوراقه، وبعض صوره وبعض أدواته أهمها شفرة حلاقــة ذقــنه، يا سبحان الله، هل هذا فقط هو ما يتبقى من الإنسان!! أين القامـــة المهيبة والصوت المجلجل والنظرة العميقة والبسمة الحنون والفكرة الصائبة والدعابة المنعشة واللمسة الساحرة والاقتراب الجنوني الذي يخلف نشوة عارمة.

وفجــأة ســـمعت صـــوته ينادي من خارج الحجرة فاشتعل كيانها بالفـــرحة وتعمـــدت ألا تـــرد إمعاناً في إغاظته، ولم يعاود النداء، فذهبت لتبحث عنه فلم تجده فظنت أنه يلاعبها فاطمأنت لذلك وعادت إلى فراشها فنامـــت.. ومضـــت شـــهور أخرى وحل اليقين برحيله محل أي ضلالات يصنعها خيال متشوق.

وبـــزغ أمـــل كفجر يتحدى ليلاً حالكاً سينتصر فيه الفجر لا محالة وبيسر شديد، قال لها شيخ جليل: الأرواح المتحابة تتلاقى بعد الموت، وفي الجنة نتزوج مرة أخرى ممن كنا نحب في الحياة الدنيا.

لفهـــا ســـرور شـــامل، امتلأت بسكينة بالغة، عمها هدوء شفاف، واجتاحها هواء منعش رقصت له جوانحها.

واســـتحثت المـــوت أن يأتـــي ليس عن يأس ولكن عن تلهف للقاء الحبيـــب. وصممت على الموت، أوت إلى الفراش ودعت ربها أن تموت، ومن شدة النشوة نامت نوماً عميقاً لم تصح أبداً بعده.

ألحان السماء:

بـــات ليلته مؤرقاً، خشى ألا يقع الاختيار عليه مع المجموعة التي ستذهب للقاء الله.

كــان الموعــد قــد تحدد في ساعة بعينها لينطلق فتية آمنوا بربهم لضرب الظلم ثم بعدها مباشرة يصعدون للقاء المرتقب عند أقرب نقطة من النور الإلهي وفي أعلى مكانة أي في المرتبة الأولى أحياء يرزقون... وفي الصـــباح اجتمعوا، جاء المعلم، تفرسهم واحداً واحداً واحداً، كان الأمل يحدو كل واحـــد منهم، ألسنتهم داخل أفواههم تتحرك بلا توجيه للدعاء يا رب ادعني للقائك اليوم، كان صاحبنا أكثرهم قلقاً لأنه منعت عنه هذه الفرصة لمرتين سابقتين.

ونطـــق المعلـــم بالأسماء، قفز كل من سمع اسمه من شدة الفرحة، انتهى الاختيار ولم يكن من بينهم هذه المرة، فاغتم اقترب من معلمه وسأله لمـــاذا استبعدتني، أجابه بأنه يدخره إلى ما هو أصعب، سعد بالثقة وتفانى في التدريب آملاً ومترقباً تدريباً خاصاً مع صفوة تماثلة في الحنين للموت، بلغوا أقصى درجات التلهف، كانوا يحلمون حلماً متكرراً في اليقظة وأثناء الـــنوم أن آخر قطرة من دمائهم قد صفيت وغادرت الروح الجسد، ثم من بعدهـــا يصعدون، آه من عشق الموت-الذي يفوق عشق الحياة الدنيا، ليس يأســـاً ولا اكتئاباً، ليس انتحاراً ولكنه تطلع للحياة الأخرى، الخلود، النعيم، السلام، وحانت اللحظة الكبرى، وانطلق، انطلق بقوة ألف صاروخ، ؟؟ روحه هي الوقود، الروح المتوثبة هي أعظم وقود، وقود خاص للصواريخ الصـــاعدة إلـــى السماء بقوة لا تقاوم، شملته سكينه، نشوة، فرحة، ارتفع، وارتفـــع، وكلمـــا اقـــترب ارتعش من شدة السرور، وداهمه يقين بابتهاج الســماء لاستقباله، لقد تزينت السماء، واصطف من سيستقبلونه ويقودونه إلى حيث النور الأعظم.

انتصار الحياة

لا ينتصـــر مـــوت علـــى حياة.. لا ينجح موت إلا في إيقاف قلب نـــابض، ولكـــنه يفضل في غزو القلوب العامرة بالأمل والفرحة.. والقدرة علـــى إيقـــاف النبض ليست انتصاراً، الانتصار هو التمني والناس يتمنون الحـــياة ولـــيس الموت.. التمني عشق للمستقبل التمني يعد بالأمل.. التمني ترقـــب للســـعادة وترقب السعادة أهم من السعادة ذاتها.. إذ يكفي أن تتمنى فهـــذا دليل حياة.. دليل حرصك على الحياة.. معنى الحياة لا يكون إلا في كلمة واحدة: الأمل.

إلا أن بعـــض الـــناس يسعون إلى الموت اختيارا فيزهو الموت أنه مـــرغوب إلا أنهـــا في الحقيقة ليست رغبة.. فالرغبة تعبير عن الهوى.. والهوى ميل وانجذاب وبحث عن الارتواء كمن يهتف عطشان يا صبايا.

إذن الســـعي إلـــى الموت لا يكون إلا حينما تموت الرغبة ويطبق اليأس، إنه موت يسبق الموت، موت الروح يسبق موت الجسد.. وقل عن الروح إنها الرغبة والتمني والفرحة واللذة والسعادة والنشوة.. إنها الحركة والنشـــاط والحيوية والنبض.. إنها الهوى والشوق والعشق قل عن الروح إنها اللحن الطروب والكلام الموزون المخطوط، قل عن الروح إنها بزوغ الفجـــر واســـتدارة القمر وسحر الليل وعرق النار وعبق الأزهار قل عن

الـروح إنها ذلك الانجذاب الخفي نتاج تفاعل باطني فيسعى رجل إلى امرأة وتـتلهف امرأة على رجل.. قل عن الروح إنها القبلة والمضاجعة وصريخ وليد وصل لتوه من رحم أمه.

هـذه هي الروح فإذا جاء الموت لجسد بلا روح فهذا ليس انتصاراً مـا أسـهل أن تقبض على جسد بلا روح ما أسهل أن تميت جسداً تعطلت روحه ولا ينهش الروح إلا اليأس. لم يكن يتصور أنه سينهار إلى هذا الحد حينما عايش اللحظات الأخيرة لأبيه. كان بجواره ممسكاً بيده.. ربما كانت هـذه المرة الأولى التي يمسك فيها بيد أبيه.. بالقطع أمسك بها كثيراً وهو طفل.. ولكنه لا يتذكر، لا يتذكر هذه اليد إلا وهي تصفعه أو تشده من أذنه إلى حد الألم الذي لا يحتمل.

اعتصـر قلـبه وهو يرى أباه يهذي بكلمات غير مفهومة تدل على حالة متفاقمة من تشوش الوعي أين عقلك الصاحي اليقظ يا أبي. أين عقلك الفـولاذي الذي كانت لا تفوت عليه فائتة ولا تخفى عليه شاردة ولا يملك أحـد أن يواري عنه شيئاً.. فإذا تجرأ أحد وفعل تنطلق من عينية شرارات ناريـة تصـعقه في مكانه خوفاً فما بالك بمن يحاول أن يكذب أو يدس أو يخـدع أو يغش فيكون الموت رعباً من نصيبه ولا يجرؤ أحد أن يشفع له فقد كنت العدو الأول للكذب.

وحيـن تراخـت عضلات الجفنين، لتحجبا أكثر من النصف العلوي للحدقتين دليل دنو اللحظات الأخيرة التاع قلب الابن أين نظراتك الصارمة يا أبي.. أين وجهك الجامد الأصلب من الحديد خاصة إذا أخطأ أحد أو تجاوز فـي القول أو خرج عن الحدود اللائقة.. كانت تعبيرات وجهك تكفي لأن يقف كل معتد أو آثم عند حدود يصعقه مس كهربائي إذا حاول أن يتعداها.

ويـا ويلتــي لقد تراخت عضلات رقبتك فمالت رأسك على جنب وكأنها ستخلع من موقعها.. أين هذا الرأس المرفوع الشامخ بفضل شجاعة قلـب كقلـب الأسد.. وكان مصدر شجاعتك هو شرفك وأمانتك.. هيبتك لم يكـن مصـدرها جعجعة صوت أو تدني لسان وإنما كنت مهاباً لأنك كنت محـترماً، وكنـت محـترماً لأنـك كنت خلقياً، وكنت خلقياً لتمسكك بقيم مصـدرها الـذي خلقك وآمنت به بعقلك قبل قلبك.. ومن علامات الموت الصحوة المؤقتة.. وهي علامة مؤكدة.. ربما يريد الموت أن يعلن بها عن انتصـاره وتكلم الأب.. واستمع الابن دون أن يريد مثلما فعل طوال حياته حيث كان يسمع فقط بقلب مرتجف دون أن ينطق وظل كذلك حتى بعد أن أصـبح هـو ذاته أباً.. لم يكن يستطيع أن ينطق أمام أبيه.. وفشل في أن يـتحكم فـي ارتجاف قلبه في حضرة أبيه.. نطق الأب بالوصية الأخيرة واعترف له الأب بأنه أعز إنسان لديه.

وخرج الابن على القوم الملتفين حول المكان يعلن موت أبيه.

وتقـدم الجـنازة بقلـب كسير وجسد مهدور وعقل مشطور ورغم أعـوام عمره التي بلغت الخمسين فإنه أحس بأنه طفل ضائع تائه.. وتذكر يـوم أن انفلتـت يـده مـن يد أبيه وسط زحام كبير عرف يومها معنى الضياع.. وعادت إليه الحياة حين رأى وجه أبيه المتلهف.

ووصـلوا إلى المقبرة. وانفتح بطنها لتلقي طعام التراب.. وانبرى واحـد من الرجال لا يعرفه ليعظ الناس ممجداً الموت مستتفهاً الحياة داعياً إلـى نـبذها ثـم زحزحت الأحجار لتغلق الفوهة بعد أن مرق منها الجسد واستقر بجوار من سبقوه وبدأ المشيعون في الانصراف أما الابن فقد شعر برغـبة فـي الـبقاء نعم هو يرغب في البقاء بجوار أبيه لا خير في حياة

غادرهــا هــذا الأب كان سنده وكان عونه وكان أمنه وسلامه. لن يعود.. ولمــاذا يعــود.. وأي فائدة من عودته وكيف يقوى على أن يعمل ويعيش ويعــول إنـــه الآن ضــعيف.. لا شيء إنه صفر.. لقد غادرته الروح في اللحظـــة التـــي غــادرت فــيها جسد أبيه ما أثقل أن يعود مرة أخرى إلى الحياة.. ما أتعسه ما أيأسه وفجأة برق نور في عقله بعث أملاً في نفسه في لحظة جاءته الفكرة فلينزل ليرقد بجوار أبيه نعم هذا هو الحل الذي أراحه وبــدد يأســـه بل أبهجه أنا في حاجة إليك يا أبي أنا لا أقوى على أن أبقى فوق سطح الأرض بينما أنت في باطنها.

واســتبقى راعي المقبرة وأفصح له عن رغبته وترجاه في أن يعيد فــتح المقبرة ووعده بأن يعطيه كل ما معه من مال وفي هذه اللحظة تذكر زوجــته وابنتــيه وأمـــه المسكينة التي ترملت لتوها وشقيقته المطلقة التي يعولها وشقيقه الطالب الذي يدعمه.. كان مسئولاً عن كل هؤلاء حين طعن أبــوه فـــي الســن وأصبح غير قادر على الحركة فقرر أن يكتب وصيته ويسلمها لراعي المقبرة.

واستســلم الراعي أمام ضخامة المبلغ الذي وعد به.. وأخذ في رفع الأحجــار التـــي كانت قد استقرت لتوها.. ويبدو أنه كان مدرباً على نبش القبور وتجرد الابن من ملابسه التي طمع فيها راعي القبر واستولى أيضاً على ملابسه وساعته وأقلامه.

وفجــأة اشــتم رائحـــة طعام انبعث من مقبرة مجاورة يعيش فيها الأحياء والأموات.. وكان قريباً من رائحة طهو زوجته وامتلأ فمه باللعاب وتحركـــت معدتـــه، وعبر خياله صورة لمائدة تعج بالأصناف التي برعت فــيها زوجــته وتمنى لو أنه يذوق من طعام جيرانه شيئاً قبل أن ينزل إلى

المقبرة ولكنه لم يجرؤ على الإفصاح عن رغبته للرجل الذي كان يستعجله بالنزول داخل المقبرة ومع الضغط النفسي الذي بدأ يمارسه راعي المقبرة لاحت في الأفق صورة الزوجة ولا يدري لماذا لاحت له وهي عارية تماماً وفي اللحظة التالية وثب إلى جوارها في الفراش هكذا ارتسمت الصورة في خياله ثم أخذ يداعبها فأرجأته إلى أن تتعطر كل هذا كان في خياله واشتم فعلاً رائحة العطر وهو يهم بالنزول إلى المقبرة وأدار ظهره لراعي المقبرة خشية أن يلحظ الرجل شيئاً غير عادي لا يتفق مع طبيعة الموقف، وقدر حزنه وتحرقه للرقود بجوار أبيه وليس بجوار زوجته. واستبدت به رغبة الطعام ورغبة الحب بإلحاح شديد امتلك عليه كل تفكيره والرجل بجواره يلح عليه الانتهاء من هذه العملية الخطرة بينما الصور تتابع في رأسه ملهبة وجدانه وحواسه واستقر الفيلم على صورة طفلتيه فاجتاحته رغبة عارمة أخرى في أن يحتضنهما شعر بعضلات صدره تتشوق لهذه الأحضان تتلذذ الصدور بالأحضان مثل تلذذ القلوب بالاقتراب وتبادل الأحضان للدقات.. وتذكر طلب إحدى ابنتيه لشراء لعبة معينة.. وتذكر موعد الأخرى مع طبيبها.

وبينما هو مستغرق في متابعته لصور أحبائه إذا بيد تدفعه بشدة فالتفت فإذا راعي المقبرة يطبق على يده ويجذبه منها ليدخل بها حيث يستقر تحت الأرض بجوار أبيه.. ونشأ صراع بينهما الرجل يشد من يده وهو يحاول انتزاعها منه بأقصى ما لديه من قوة فدفعه الرجل فسقط على الأرض، وركب فوقه وأطبق بكلتا يديه على عنقه ربما أراد أن يزهق روحه قبل أن يدفنه وشعر الابن بدنو الموت فقاوم وتملكته أقصى رغبة في الدفاع عن حياته وفي خضم هذا الصراع الرهيب الذي تقدر عواقبه

بعـد كل ثانية لاح في رأسه خاطر استغرق أقل من واحد على مليون من الثانية.

ماذا يحدث الآن ؟ لماذا أحاول دفع هذا الرجل عني ؟ لماذا أريد أن أفلـت منه رغم أنه يسدي لي معروفاً ؟ أنه ينفذ رغبتي إنه يساعدني على أن أمـوت.. فلمـاذا أقاومـه معنى أنني أقاومه أنني أريد الحياة ولا أريد الموت فماذا أريد حقاً أريد باطن الأرض أم أريد سطحها أريد ظلمة القبور أم شمس النهار وقمر الليالي أريد أن تطعمني الديدان أم أريد طعام زوجتي أريد الرقاد بجوار أبي أم أريد الرقاد بجوار كل جانب من جوانب زوجتي أريد رائحة التراب أم أريد أن اشتم العطر الأنثوي.

كل هذه الخواطر والأسئلة عبرت رأسه في هذا الجزء من المليون مـن الثانـية ولم يدر إلا وقد قذف براعي القبر بعيداً عنه وانطلق يجري بأقصى سرعة مخلفاً المقبرة وراء ظهره وصل إلى الطريق العام وهو عار تمامـاً يكاد يطير من فوق الأرض ظناً أن راعي المقبرة يتبعه عدواً وفي عـرض الطـريق سقط مغشياً عليه بعد أن كادت سيارة أن تدهسه.. أفاق وهـو في مستشفى للأمراض العقلية ولم يصدق الطبيب أن روايته حقيقية وشخص حالته على أنها حالة عقلية متقدمة نتيجة لصدمة وفاة أبيه.

وخرج من المستشفى حاملاً معه تذكرة علاج اعتبرها شهادة ميلاد عاد إلى البيت طلب من زوجته إعداد الطعام الذي اشتم رائحته، دعا طفلتيه إلى حضنه تناولوا الطعام بتلذذ شديد وأودع طفلتيه الفراش وذهب بزوجته إلى الفراش حيث لذة أشد.

دمية يصنعها الشيطان

الدمية لا تتحرك من تلقائها، ولا تعرف كيف تتكلم.. الدمية مشدودة من عنقها بخيط، ومن كل يد بخيط ومن كل رجل بخيط.. ويد عليها تحركها.. إلى اليمين.. إلى اليسار.. إلى الخلف.. إلى الأمام.. اقفزي في الهواء.. نامي على الأرض. والناس يضحكون يتسلون والكلام ليس كلامها بل ينطقون لها من خلف ستار والأطفال يصدقون أنها تتكلم، وأحياناً يصدق الكبار من البسطاء..

ومن يمسكون بالخيوط يجعلونها تحب وتكره وتنام وتصحو يصنعون بها كل شيء ويستطيعون أيضاً أن ينهو دورها فيجعلوها تموت وتدخل المسرح دمية أخرى ليضحك الناس من جديد والجديد يثير أكثر يدهش أكثر ويسلي أكثر والدمية تحتاج إلى بلياتشو مصنوع من الخشب مثلها ومجرور بالخيوط وبذلك يمكن نسج قصة.. المهم أن يضحك الناس وقبل أن يضحكوا لابد أن يدفعوا والدفع ليس للدمية أو البلياتشو ولكن لمن يحرك الخيوط لمن صنعهما ولأنهما من الخشب فإن أقصى ما تحظى به الدمية هو فستان والبلياتشو يحظى على الأكثر بطرطور ولأنهما من الخشب فلهما عمر افتراضي يحالان بعده إلى المعاش يوضعان في المخزن أو يتحولان إلى قباقيب.. والقبقاب هو شبشب من الخشب وهكذا بعض الناس معلقون من الخيوط مصائرهم ليست في أيديهم كلماتهم ليست ملكهم

حركتهم خارجة عن نطاق إرادتهم هم وسائل وأدوات كالدمى والبلياتشوهات يرتفعون ويهبطون حسب ما يدفع فيهم يحالون إلى المعاش أيضاً حين لا يسلون ولكنهم لا يتحولون إلى قباقيب لأنهم من لحم ودم.

النخاسون يجوبون السوق يبحثون عن دمى بشرية، الدمى البشرية لابد أن تولد جاهزة بإمكانياتها المهم أن تعثر عليها والنخاسة هي صناعة لها أشكال متعددة.. وكلها تجارة في البشر نشتري فمن يبيع؟ وبعض الدمى البشرية تذهب إلى سوق النخاسة بأرجلها نحن نبيع أنفسنا فمن يشترينا نحن نجيد فن الإضحاك والتسلية نحن موهوبون وموهوبات.

طيب اعرضوا ما لديكم ولكن الفن وحده لا يكفي، من يحب الفن يضحي ومن يعتلي الخشبة يعرف مقدماً ما له وما عليه فمثلاً من تعتلي الخشبة لابد أن تكشف عن ساقيها وإن أرادوا أكثر ستفعل وإن أرادوا أقل ستفعل حسب الدور.

والطريق صعب ومضن وخبراء النخاسة محترفون إنها صناعة الشيطان، فالشيطان يعمل كثيراً، الشيطان غير كسول، الشيطان خبيث وأساس أي صناعة يقوم بها الشيطان هو الإفساد وكل من يذهب إلى سوق النخاسة بقدميه لديه الاستعداد للفساد هذا هو الثمن ولنسمّها التضحية، حب الفن، يولد الإنسان ومعه موهبته ومعه استعدادات أخرى تتيح له التسلق والتشقلب وكشف الوجه وكشف الساق والأهم كشف الوجه والوجه المكشوف يقصر الطريق عيني عينك.

وتلوح في السوق دمية جميلة أنثى صغيرة لكن ناضجة والنضوج في الجسد فقط فمن يأتون إلى سوق النخاسة بأقدامهم ليس لهم عقل، تحوم حولها الشياطين خبراء النخاسة الصناع المهرة اعرضي ما عندك يا

شـــاطرة أنـــا أعـــرف أغنـــي أرقص وأمثل البنت فعلاً موهوبة أو حتى نصـــف موهوبة نصف الموهوب، لا بأس نستطيع أن نستكمل له ما ينقص المهـــم أن الاســـتعداد موجود وفوق الاستعداد الرغبة في التضحية وتلتقط لهـــا مئات الصور وفي كل الأوضاع رائع رائع برافو أهلاً وسهلاً تقدمي يـــا فـــتاة ادخلـــي برجلك الشمال فنحن من أهل الشمال كفانا الله شر أهل اليمين.

الصـــور تملأ الصحف والمجلات صاروخ قادم إليكم ليس من قبل ولا مـــن بعـــد أوســـكار قليلة عليها معجزة ارتفعي ارتفعي لامسي النجوم واتخـــذي موقعاً بينها، إلى أين أرتفع بعد ذلك، السماء أصبحت أقرب إلي من الأرض من يردْ أن يراني فليتطلع إلى السماء ورفقاً بالرقاب أنا النجم الأوحـــد أشع الضوء في كل اتجاه اتملى بنوري تصفيق صراخ والموهبة تـــتفجر أكثر وأكثر والأدوار أصعب وأصعب تحفظ عن ظهر قلب وتردد باقتدار ولكنها لا تستطيع أن تفلت من الخيوط إن أفلتت وقعت وإن لم تردد ما يملون تحشرجت ولكنها والحق يقال رائعة رائعة في الحدود المرسومة أو رائعة في تحقيق المتصور في الخيال، هو اقتدار فعلي، لكن العقل فارغ واللسان لا ينطق إلا بكل ما هو فارغ.

ياللمصـــيبة أهـــذه هـــي نجمة النجوم أهذه صاحبة الأدوار الصعبة وزوجـــة الكاتـــب الكبـــير وصـــديقة السياســـي العتيد لكنها تصدق نفسها ويزيدونها انتفاخاً وتكتب كل الدنيا عنها ويتزاحم الناس حولها ويتساقطون فـــرحاً لرؤيتها من بعيد وتحاك الشائعات من أجل مزيد من الإثارة طلاق فـــزواج فطـــلاق فمغامـــرات بريئة وغير بريئة ومازال المسرح منصوباً ومـــازال الشيطان يحرك الخيوط ويتكلم من خلف الستار نيابة عنها. لكن

الـناس يملـون.. والجديـد مثير والصغير نضير والسوق تكتظ بالقادمين الساعين. لابـد من موهبة جديدة لابد من دمية جديدة ويعلن عن اكتشاف جديـد صـاروخ لـم تشهد الأرض مثله انتظروا المفاجئة الكبرى النجمة القديمـة لـم تعـد قادرة على أن تخرج النقود التي في الجيوب إنه الملل والـتقدم فـي العمـر والجديد يزيح القديم من فضلك يا سيدتي انزلي من عرشـك وترفض تتشبث فيمنعون عنها الماء والنور، تتراجع الأخبار تشح التحقيقات، تقل العروض، تختصر الأدوار، اقبلي أو لا تقبلي ليس لك خيار السـوق هي السوق إن سعرك قد انخفض والجديدة مليحة جريئة ساخنة أو دافئة تستجيب أكثر، والجمهور يصفر بدلاً من أن يصفق أيها الغادرون لا وفـاء لجمهـور، ولكنك يا سيدتي كنت دمية فلماذا تغضبين، روعتك في اسـتجابتك لحركة الخيوط وترديد ما يضعونه على لسانك ولكن عقلك كان فارغـاً فأنت لا تقرئين وربما لا تكتبين أنت نبت شيطاني لكنه فاقع اللون يسـر الناظريـن فإذا جاءت من هي أزهى لوناً فأنت تنزوين والنجم حين يهوى يحترق احتراقاً ذاتياً احتراقاً من الداخل احتراقاً بفعل سرعة السقوط فهـو لا يملك مقومات البقاء فنوره مسلط عليه من الخارج نوره لا ينبعث مـن داخله إنه نجم مضاء وليس مضيئاً إنه نجم مصنوع وليس صانعاً إنه نجـم مشـتري وليس مالكاً والصحاب يتفرقون والرفاق ينفضون والشمس تغيـب والمـال يتبخر مثل الجمر والناس لا يلتفتون في الطريق والرفاق ينفضـون والشمس تغيب والماس يتبخر مثل الجمر والناس لا يلتفتون في الطـريق والعدسـات لا تمضـي والأخبار لا تنقطع مثل انقطاع الماء في الصـحراء والإشادة تكون بالماضي فالمستقبل يملكه آخرون وأخريات .. سوق النخاسة لا تنضب والشياطين لا تموت والمهرولون كثيرون.

طبول الحرب

الثعابين لا تترهل.. إلا أن الثعبان الأكبر يبدو مترهلاً.. ولهذا يبدو شكله مضحكاً.. وعادة نحن لا نضحك حينما نرى الثعابين وإنما نشمئز إلا أن هــذا الثعــبان المــترهل يثــير الضــحك فعلاً وهو أي الثعبان الأكبر المترهل.. يبدو أكثر إضحاكاً حينما يرقص، إذا راقبت حركته وهو يمشي ســيبدو وكأنــه يــرقص، ليس رقص الغوازي وإنما رقص الثعابين وقد تتصوره حية ربما من نوع الكوبرا لا لشيء إلا لأن تكوينه الجسدي أقرب إلى الأنثى، أنثى تتلوى، والأنثى تتلوى حين ترقص أو حين تبيع الهوى.

ورغــم أن الثعابيــن لا تحمل السم إلا في فمها إلا أن هذا الثعبان المترهل يرشح السم من كل جسده، كل خلية هي بؤرة سامة إنه يحمل سماً يكفــي لقــتل الناس جميعاً، ولهذا فهو يزهو بنفسه ولا يزداد زهواً إلا إذا ســمع طــبول الحرب يود لو يسمعها حتى في منامه، الحرب.. الحرب.. الحرب.. ما ألذها من كلمة.. القتل.. القتل.. ما أروعه من عمل.. الدم ما أطعمــه من شراب يبعث على النشوة، وقليلة وكثيرة مسكر ورائحته تسكن أنفه مثيرة أشد الرغبات الجنسية إلحاحاً، ارتبط الدم عنده بالجنس وتنتظره زوجــته علــى أحر من الجمر وتبادر بالسؤال: كم قتلت اليوم وبقدر عدد القتلى بقدر استمتاعهما معاً.

القــتل يمــنحه قــوة الثيران بالرغم من أنه ليس ثوراً وإنما ثعبان مترهل يرشح سماً ويرقص على طبول الحرب.

ورغـم ندرة ابتساماته إلا أن قلبك ينقبض حين يبتسم فيبدو وجهه أكـثر الوجـوه قـبحاً على الأرض، يا سبحان الله فبينما تجمل الابتسامة الوجوه فإن ابتسامته تزيده دمامة وتثير لدينا الحاجة إلى التقيؤ من يره يتقيأ ومـن يسمعه يتكلم يشعر أن الشر الذي على الأرض كله قد تجمع في قلبه الحاقد المغرور وهل للثعابين قلوب؟

أمـا كـيف تقدم الصفوف حتى صار في المقدمة فإن الثعابين التي مثله حملته على الظهور وأفسحت له الطريق ورقص رقصة النصر وغنى بصـوته المشوه: أنا الملك جئت لأنني منكم وأنتم مني أنتم مثلي وأنا مثلكم أنـا النار.. أنا الشيطان.. أنا الدمار.. دقي يا طبول حتى ترتوي الأرض سـما ودمـا سنلتف حول كل عنق وسنخترق القصبة الهوائية وسنتجاوز العمـود الفقـري وصولاً إلى النخاع هذه هي غاياتنا ومرمانا وننفث السم ونشل الأطراف هذه طريقة، أما الطريقة الأخرى فتتجه إلى القلب مباشرة نهشم عظام الصدر ونعبره إلى القلب ونفرغ في داخله السم فينتشر في كل الجسم فتتوقف الحياة في التو واللحظة.

إن دستورنا يتكون من كلمة واحدة نعم كلمة واحدة فقط، إن دستور أي دولـة يـتألف مـن صفحات وصفحات أما دستورنا فيتكون من كلمة اقـتل.... وإذا أردت مضاعفة حجم دستورنا فرددها مرتين: اقتل.. اقتل.. الأولـى للبشر والثانية لكل شيء تدب فيه الحياة فيما عدا الثعابين وابدءوا بـالأرض فهي مصدر كل حياة احقنوا الأرض بالسم فيموت النبات ويهلك الحـيوان وتتهاوى الطيور وتندثر الحشرات ولتبق فقط الثعابين على وجه الأرض لـيس جديـراً بأن يعيش إلا الثعابين ليس مختاراً ولا مفضلاً غير الثعابين وأوصيكم بقتل الأطفال حتى لا يكبروا وأوصيكم بقتل النساء حتى

لا يلدن ابدعوا دائماً بالأطفال والنساء فإنهم أشد خطراً. ومن لا تستطيعون قـتله هددوه وابتزوه أو أفسدوه وليسَخرْ الجميع من أجل خدمتكم كل الناس عبيد ونحن فقط الأسياد.. الأسياد في كل شيء نحن المختارون.

ولا تنشغلوا بالتاريخ فالتاريخ يمكن تزويره والعالم أغلبه من البسطاء لا يعنيهم إلا أمور حياتهم الشخصية العالم غافل.. العالم يلهو.. العالم طفل بينما نحو عقل العالم ومحوره فلتكن كلماتنا هي المقروءة والمسموعة والمرئية لا تجعلوهم ينتهون لشيء إلا ما نمليه عليهم تفننوا في غسيل المخ وإعادة صياغة العقول، وتلوين النفوس اصنعوا أجيالاً من البشر لا تؤمن إلا بكم، بوعي وفهم أو بدون وعي وفهم والأفضل بدون وعي وفهم فيرددوا أناشيدكم كالببغاوات. والناس قد ينقلبون ضدكم إذا عرفوا حقيقة أمركم فارهبوهم، سلطوا الأسياف على أهم الرقاب احتفظوا بالفضائح المسجلة ومن يتمرد يلق حتفه عاراً أو موتاً.

ويظل الثعبان الأكبر المترهل يعظ قومه من الثعابين قائلا: وأفسدوا في الأرض رغم أن الله لا يحب المفّسدين ولكن ربكم ليس هو رب كل الناس إن ربكم يحبكم أنتم ويفضلكم ولهذا فإفساد بقية الناس حلالٌ، أفسدوهم بالدعارة والمخدرات وأفسدوا ذمم بعضهم بالمال ليكونوا أعوانكم إنهم من قوم عدوكم ولكنهم سينضمون إليكم وما أسهل إفساد الذمم هذه الأيام لغيبة الضمائر، ضمير العالم في أجازة، وهو قد مات لن يأبه أحد لتماديكم في تكسير العظام وإزهاق الأرواح، افعلوا ما شئتم دون خشية لومة لائم، الكلاب في هذا الزمان أغلى من الإنسان إلا نحن فإنساننا عزيز علينا نبحث عن عظامه ونلملمها حتى ولو بعد مائة عام من موته. ولتأتوا من جميع أطراف العالم لتتجمعوا في هذه البقعة ولتهدوا البيوت في رؤوس

أهلهـا ثـم أعـيدوا بـناءها لتسكنوها ومن تقع عينه على شيء فهو ملكه ودوســوا بأحذيـتكم الملوثة بالروث كل عزيز ومقدس لديهم تدموا قلوبهم حزناً وأسفاً.

ويظـل الثعبان الأكبر المترهل يهذي ويخطرف، وينتصب بجسده لـيهوى على الطبلة فتصدر أسوأ نداء للحرب تصوروا ثعبان يدق الطبلة برأسـه مثلما تفعل اليد مع الطبلة يالها من صورة يسند الطبلة إلى الأرض ثـم يرفع مقدمة جسده ثم يهوى برأسه على الطبلة بعنف بأقصى ما عنده من قوة مبعثها الحقد والحنق والسوء والشر.

ولا يكـف عن تكرار دق الطبلة برأسه دون كلل وينتشي بأحاسيس ناشئة عن ارتطام رأسه بعنف بالطبلة ويشعلها أكثر رجع صدى دق الطبلة وحين تشاركها طبول أخرى استجابة عارمة لنداء الحرب.

وإذا بكـل الثعابيـن تـدق الطبول وتنادي بالحرب إنهم شعب من الثعابين السامة وليس تجاوزاً أو ابتعاداً عن الحقيقة حين نصف إنساناً بأنه كالثعـبان فالثعابين تترصى دون جلبة أو ضوضاء تفاجئك دون أن تشعر، تعـرف طريقها دون أن تراها تدفعها رغبة الإيذاء والإضرار هي تعرف أنهـا تحمـل سماً مميتاً ويا سبحان الله على الصورة التي خلقها الله عليها حين وضع السم في فمها وتحت أسنانها سبحان الذي خلقها ملساء في لون الليل حركتها لا تصد ولا يمكن لأحد أن يحذرها فإذا بها تنهشك في جزء من الثانية ثم تمضي مسرعة دون أن تنتبه إلى اتجاهها..

إن الثعابيـن لا تواجـه لا تـتحدى لا تتنازل، الثعابين بلا شرف وبعض الناس بلا شرف وبعض الشعوب بلا شرف يا للمطابقة بين بعض الـناس والثعابيـن تكون أقرب ما يكون إلى الثعابين قد تصف إنساناً بأنه

رحل مغرور

التقزز يسبق الغثيان، والغثيان يسبق القيء، وكلها أحاسيس جسدية تصدر عن المعدة التي تحتج وتنتفض بعصبية، بل تتشنج وتقذف بمحتوياتها إلى الخارج بغضب غير عابئة بعواقب الجوع والنقص الغذائي، وذلك حين تصل إلى قمة بسبب شيء فاسد طالعته العين أو شمه الأنف أو تذوقه اللسان أو نجح في الوصول إليها وملامسة جدارها، فأبت أن تحتفظ به، حتى لا يسمم صاحبها، كما أن هناك مواد فاسدة، فإن هناك بشراً فاسدين لهم رائحة ومذاق وشكل يبعث على التقزز، وبذا يصبح التقزز حالة نفسية أيضاً تبعث على الغثيان، وإن لم يعقبه قيء.

وعجيب أن يكون هناك تطابق بين أحاسيس جسدية ومشاعر نفسية، فالتقزز واحد والغثيان واحد، وهو نفس التشنج الذي يصيب المعدة، فتتلوى تذمراً ورفضاً.

وأتصور أنني لست مختلفة عن بقية البشر، فأنا حين أرى شخصاً ما أو اسمع صوته أو أشم رائحته أو ألامسه ، تختل جميع أجزاء جسمي، وبخاصة الجهاز الهضمي، وعجيب أن يكون الجهاز الهضمي هو الذي يبادر ويسارع بالاستجابة، ويكون في المقدمة لتغطي أعراضه على بقية الأعراض التي تصدر عن الأجهزة الأخرى.

ولا أستطيع أن أصف كيف أشعر بالتقزز، لكنني أستطيع أن أقول إنه يشابه التقزز الذي قد يشعر به أي إنسان تجاه شيء كريه يؤذي الحواس، إذن هو تقزز جسدي وإن صدر عن رؤية شخص ولا مادة عفنة.

ثم يعقب هذا التقزز النفسي حالة من الغثيان والغثيان هو الشعور الذي يسبق حالة القيء إنه حالة من الاضطراب والتوتر والتحفز تبدأ من الفم وتنتهي عند المعدة، ويصاحبها إعياء وضيق وحيرة ولا فرق بين الغثيان لأسباب نفسية والغثيان لأسباب عضوية فكلاهما يزحف على المعدة مهدداً بقذف محتوياتها إلى الخارج لأسباب نفسية والغثيان لأسباب عضوية، فكلاهما يزحف على المعدة مهدداً بقذف محتوياتها إلى الخارج حين تشارك هي الأخرى في حالة الرفض العام لذلك الشيء أو لذلك الإنسان.

وإذا أردت أن تتعرف على مدى فظاعة هذه الأحاسيس وأن تقف على المعنى الحقيقي من ورائها، فعليك أن تستعيد في ذاكرتك الأحاسيس المناقضة أو المقابلة أي عكسها، مثل انفتاح الشهية والرغبة العارمة، والإقبال بتلهف والاستنشاق المثير اللعاب السخي والانقباضات الرقيقة للمعدة معلنة عن استعدادها للتقبل والاحتواء والاحتضان والاحتفاظ بما يصل إليها، ويصاحب تلك الأحاسيس الجسدية أحاسيس أخرى نفسية، كالسرور والفرحة والحماسة والنشاط والثقة والأمل الواعد بلذة شيقة..

تصور أن شخصاً ما أو طعاما ما يثير لديك كل هذه الأحاسيس والمشاعر الرائعة وشخصاً آخر أو طعاماً آخر يثير لديك كل الأحاسيس والمشاعر السلبية من اشمئزاز وتقزز وغثيان وربما قيء أيضاً. وكما أن هناك طعاماً آخر ساماً فإن هناك أيضاً إنساناً طيباً وإنساناً آخر ساماً،

والســم مبعثه فساد التكوين والمحتوى، فكل ما هو فاسد سام، وكل ما هو سام فاسد.

وعجيـب أن نقـابل بين الإنسان والطعام وأن نجعل بينهما مقارنة واردة على الخاطر، وهذا حقيقي، فالطعام مصدر مهم من مصادر الحياة، وهناك إنسان ما في حياة كل منا هو مصدر مهم من مصادر الحياة لمجرد وجـوده في حياتنا، كما أن للطعام رائحة تخبر عنه وتكون محببة ومثاراً للشهية، ودافعاً للإقبال تماماً مثل أن لكل إنسان رائحة تذكرك به، وتجذبك إليه تفتقدها إذا غاب، وتستعيدها في ذاكرتك إذا استبد بك الشوق، نعم.. إن الـروائح مــن الممكن استعادتها عن طريق الذاكرة، وللطعام أيضاً مذاق يجلــب اللعــاب سخياً، ويبعث بالحركة المترقبة للمعدة، والإنسان أيضاً له مذاق، له طعم خاص، وهو مذاق وطعم لا تدركه بلسانك وفمك، لكن تدركه بعقلــك ووجدانــك، تدركــه بكلك، أي كل شيء فيك يتحول إلى أعصاب تذوقــيه، تــدرك طعــم هذا الإنسان، تجعل له خصوصية، تجعله متميزاً متفرداً، له طريقة، له أسلوب، له نكهة، أي له طعم.

وهذا الرجل يثير اشمئزازي وتقززي، أي أنني أرفضه، وهذا أمر أصبح شديد الصعوبة، وفوق قدرتي على التحمل، ووضعني في حيرة بالغة لا أدري ماذا أفعل، هل أفر هاربة أم أطلب الطلاق، أم أقتل نفسي؟ فأنا لم أعــد قادرة على التحمل، وأعتقد أن أي إنسان يستطيع أن يدرك مشاعري بســهولة ويــتعاطف معــي إذا تصور طعاماً فاسداً له رائحة غير طيبة، واضــطر أن يبــتلعه، أي لــم يكن لديه الخيار أن يرفض، بل لا مفر من تناوله، أية قسوة، أي ذل أي ألم نفسي قبل الألم الجســدي. وأنا مضطــرة للحــياة مع هذا الرجل، فالأولاد مازالوا في المرحلة الوسطى، أي في أشد

الاحتـياج لـلأب والأم معـاً، وأنا لا أملك القدرة على الاستقلال بحياتي لأسباب كثيرة، منها عدم وجود أسرتي وقلة مالي الخاص.

وقد تسألني منذ متى وأنا أعاني؟

سأقول لك منذ أول يوم في زواجي.

وبالقطع ستعاود السؤال: ولماذا تزوجته؟

سـأجيبك بأن سلوكه المقزز لم يظهر بوضوح إلا في اليوم الأول لحياتـنا معاً تحت سقف واحد. وقد تتعجب وتقول وهل من المعقول أنك لم تكتشفي ما ينبئ بسوئه في فترة الخطوبة.

سـأجيبك بـالحق إن بعض ملامح سوئه قد بدت في أثناء الخطوبة لكـنها كانـت محـدودة جداً إلى الحد الذي جعلني أعتقد أنه سيتغير إلى الأفضـل، وأنني سأستطيع معالجة الأمر بحكمتي، خاصة أنني كنت أحبه، أو قل إنني كنت معجبة به، أو الحقيقة أنني كنت منبهرة بجوانب أخرى في شخصـيته، جعلتني لا أتفحصه بعناية، أسوأ شيء أن تنبهر بالسطح اللامع دون أن تخْبرُ الباطن الزائف.

وستسـألني حـتماً عما يضايقني منه، أو على وجه الدقة ماذا يثير اشمئزازي؟

وسـتعجب إذا قلـت لـك إنها كلمة "أنا" التي لا يكف عند ترديدها عشـرات المرات في اليوم الواحد، أنا الأذكى، أنا الأنجح، أنا الأقوى، أنا الأجمـل، أنـا الأغنى، أنا طرزان، أنا أسد، لا تجلس إليه إلا ويحدثك عن نفسه بغرور وانتفاخ قاتلين، وهذا التضخيم في الذات له متلازمات أخرى، كالأنانـية وتحقير الآخرين، والنرجسية والشعور بالاضطهاد والشك وسوء الظـن، فهو لا يحب إلا نفسه، ويفترض أن الآخرين يجب أن يتسابقوا إلى

خدمـــته وإرضـــائه، وهـــذا هو ما فرضه على، إذ يجب أن أكون متيقظة ومتنـبهة فـــي كل لحظة ومستعدة للاستجابة الفورية لكل طلباته وفي أي وقـــت، حتى ولو كنت مستغرقة في النوم، وعاد متأخراً، فيجب أن أنهض منتفضـــة، فقـــد يحـــتاج إلى كوب ماء ليشربه، وإذا نمت متأخرة أو كنت مريضـــة فإنه من الواجب علي أن أكون في شرف توديعه إذا غادر البيت فـــي وقت مبكر، ثم علي أن أتحمل نقده اللاذع وعدم رضاه عن أي شيء أفعله أو أقدمه، واعتراضه على طريقة كلامي ومظهري وملبسي وأفكاري، فأنـــا الأقـــل دائمـــاً، أنـــا الأتفه، بينما هو العبقري الذي لا يضاهي، هذا بالإضـــافة إلـــى تذكـــيره دائماً لي بأنه صاحب فضل علي، وأنه لولاه لما عشـــت فـــي هذه البحبوحة المادية التي يجب أن يغبطني عليها كل سيدات الأرض، ولا يخجل من أن يؤكد على ذكورته الشديدة في الفراش، وأن هذا من موجبات امتناني له.

وبالـــرغم من البيت الطيب الذي جاء منه، فإن ألفاظه بذيئة وسبابه مـــتدن، ووضـــعي دائمـــاً في موقع المدانة المتهمة المحاطة بالشك وسوء الظـــن، لـــذا فهو يحاصرني وكأنني في سجن، وهذا في تقديري دليل على عـــدم ثقته بنفسه، وهذا يعني أيضاً أو يفسر سر انتفاخه الكاذب، وهو دائم الشعور باضطهاد الآخرين له، وأنه يستحق أكثر مما وصل إليه لولا الغيرة والحســـد والحقد والمؤامرات التي تحاك ضده لخوفهم من عبقريته التي بلا حدود.

وضغط عليّ أبي لكي استمر رغم إشفاقه الواضح، وأخبرتني أمي أنـــه لا توجـــد في العائلة حالة طلاق واحدة، وازداد موقفي سوءاً بعد وفاة أمي وتبعها والدي، شعرت بضعفي وقلة حيلتي، وزاد استبداده وابتزازه.

وحيـن أراجع حياتي معه أجدني قد تحملت كل سخافاته بصبر إلا شـيئاً واحداً يضيق به صدري، وهو وجهه الذي ينقلب فجأة، فلا ترى منه إلا الازدراء والاسـتخفاف والعـداوة والعدوانية.. ولقد تصور خاطئاً أن إرضـائي مادياً وجنسياً يجعلني أتغاضى عن سوء طباعه، إلا أنني أحسد زوجـة الـرجل الفقير الذي يحترمها، وأحسد زوجة الرجل المريض الذي يشبعها مودة وتشبعه رحمة، ناهيك عن أنني فقدت الاستجابة الجنسية تماماً رغم تباهيه بقوته الحيوانية.

إننـي أصبحت دائمة التوتر، تفزعني تليفوناته وأتوقع أنه سيخبرني بمصيبة، يضايقني وجوده، وأشعر بالاختناق، ارتاح كثيراً لسفره وابتعاده، وأنـا على وشك الانهيار مما قد يؤدي إلى اندفاع جنوني، إذ لم يبق إلا أن أموت أو أطلق أو أجن.

الرحلة الثانية

لـــم تكـــن هذه هي النهاية.. أي لم أكن ماضية إلى العدم، بل كانت الـــبداية لحياة أخرى.. إلا أن لحظاتي الأخيرة في الحياة الدنيا كانت مثيرة للغايـــة.. بالـــرغم من أن فكرة الموت اختيارياً راودتني منذ عشر سنوات علـــى الأقـــل إلا أنهـــا لم تسيطر علي تماماً إلا حينما باغتني ملك الموت بـــزيارته.. فـــي ذلك اليوم المتشح بالسواد منذ بدايته استيقظت وكأن جبلاً جاثمـــاً فوق صدري.. لم أتحرك من الفراش إلا بعد مرور ثلاث سنوات.. وبلا مبررات شعرت بعدم حب المكان.. وربما لأن ملك الموت كان يحوم حـــوله.. جـــاءتني الصديقة ببعض الطعام وقليل من الشاي. كانت معدتي منغلقة تماماً أمام حتى رشفة ماء. قالت لي ستموتين من الجوع.. كان لوقع كلمـــة المـــوت صدى غريب في أذني لم أعهده من قبل وكأنه تأكيد لقرب النهاية.. قلت لها بلهجة ساخرة تقطر مرارة إنها فرصة لينخفض وزني.. مســـحت فوق رأسي مدعية أنني مازلت جميلة.. بل أنا بشعة يا صديقتي.. أتذكريـــن بداية الاكتئاب حينما قابلني صديق في الطريق ولم يتعرف إلي.. ناديته فتعرف على صوتي.. إن صوتي هو الشيء الوحيد المتبقي من آثار الماضـــي.. إنه الأثر الوحيد.. التحفة الوحيدة.. هاله منظري، سقط الشعر وســـقطت الأســـنان وانـــتفخ الجسد.. ياللأسف.. أين أنا الآن من الزمان الأول.

ضننت عيناي بالدموع فبكت صديقتي فتشاءمت.. مضحك أن نقول إن المتشائم تشاءم أو أصبح متشائماً..

أي لغــة تحتمل هذه التركيبات السخفية.. لماذا تبكين يا صديقتي.. هــل بانت على وجهي علامات الموت.. إن للموت علامات.. ملك الموت يرسل اتباعاً للتمهيد لقدومه.

حملت نفسي للحمام.. المرايا تغلف كل الجدران.. رأيت نفسي من الخلــف ومــن الأمــام في آن واحد.. كان الأمام أسوأ من الخلف.. بل يا ســندريلا القمــر.. يا من كنت جميلة.. يا أم المرح.. يا روح الابتسامة يا مبعــث السرور.. يا صديقة ورد مقطر.. يا كل الروائح المثيرة في الدنيا فــي الإنــس والجن والحيوان والحشرات.. حتى النباتات كانت تميل شوقاً وتلهفاً لممارسة الحب حين كنت تعبرين بجوارها.

تشــاءمت للمــرة الثالــثة حين لم أجد فرقاً بين وجهي ورأسي من الخلــف.. كنت كتلة واحدة.. ياه.. من أنا ومن أكون أنا غير أنا.. لا يوجد أثــر واحد من أنا زمان.. وأنا لا أريد أن أكون.. أكون ماذا أكون؟ وأكون من؟ بل أنا الآن لا أكون.. إنني غير موجودة.. أنا عدم.. أنا لا شيء.. يا ليتني فعلاً أكون لا شيء فهذا أفضل من الشيء الذي تعكسه المرايا من كل جانــب.. أدركــت الآن فقــط أنه لا يوجد مني غير هذا الجسد فقط.. أما روحي فقد مضت ونفسي قد زهقت..

عدت من الحمام كما أنا فلم أقو على رفع يدي إلى وجهي.. جلست على حافة الفراش.. نقر رذاذ المطر على النافذة فتشاءمت للمرة الرابعة.. وكــأن كائــناً مــا يريد أن يدخل المكان عن طريق النافذة.. إنه يخشى أن يطرق الباب فلن يفتح له أحد حيث إن صديقتي قد رحلت.

رن جـرس التلـيفون.. لـم أتحرك.. جاءني صوته دون أن أرفع السماعة.. أراد أن يترك لي رسالة.. قال آسف لأني أريد أن أنهي العلاقة.. لأول مرة أشعر بلدغة ثعبان.. اختطفت السماعة من موضعها .. ألو.. ماذا تـريد.. مـاذا تقول.. جاء الصوت من الجانب الآخر.. آسف.. لكل شيء نهاية..

انزلقـت السماعة من يدي.. لم أهتز إلا ثواني.. الكل باطل.. الكل اقـتات من روحي.. والكل هرب.. إلا رجلاً واحداً لم يهرب إلا بالموت.. كـان نـور عينـي.. كان مثلي حزيناً.. وأحياناً كئيباً.. أعجب خليط من الواقعـية والرومانسية.. وأحبني.. قل إنني كنت ابنته أو صديقته أو حبيبته قـل أي شيء.. ولكنه كان يحبني.. كان حباً عظيماً.. أما أنا فكنت أشعر نحـوه بشـيء يفـوق الحب.. إنه الرجل الوحيد الذي منحني الطمأنينة.. والرجل الوحيد الذي لم يقتت من لحمي.. والرجل الوحيد الذي أعطاني ولم يأخذ مني أما فيما عدا ذلك فالكل باطل.

عادت صديقتي كنت نصف واعية.. إذ لم أكن قادرة على الغضب، ففـي الغضـب يقظة.. لم تغضبني المكالمة التليفونية وإنما أخذت نصف وعيـي وهـذا هـو مـا يستطيعه المكتئب.. وأعادت سماعة التليفون إلى مكانها.. فهمت كل شيء.. قالت لي: في داهية.. كلهم سيئون.. وبالنصف المتبقـي مـن وعيـي ناولتها بعض أشيائي: جنيهين وحجاباً والرباعيات وصـورة لصـاحبها تحمـل إهـداء: إلـى وجه القمر.. وناولتها بدايات مذكراتـي.. آه لو أكملت هذه المذكرات.. آه لو قرأها أحد.. لانهارت دول ولانـتحر زعماء ولسجن وزراء.. لقد اضطررت للسياسة اضطراراً وإلا قطـع الرقـبة.. ففضـلت أن أعيش.. وبعد أن شبعوا رموني.. استنجدت

الحب.. أنا الحياة.. أنا اللحن.. أنا الرغبة.. أنا النشوة.. أنا الضحكة أنا الإيقاع المريح، أنا الجمر.. أنا.. أنا.. أنا..

وصلت إلى السور المنخفض.. لامسته بيدي.. ولاح لي الحبل. وضعوه الآن حول العنق.. لا مفر .. اعتليت السرور ترددت لحظة.. صرخت السيدة المسكينة سقطت في الحفرة وكسر الحبل عنقها.. وسقطت أنا من الشرفة .. وسبحت في الهواء.. استغرق الأمر بضع ثوان.. اصطدم رأسي بالأرض.. كان هذا آخر ألم بشري أعهده.. وخرجت الروح من الجسد.. نظرت إلى الجسد وقد غرق في بركة من الدماء.. جاء من يستطلع الأمر..

وصرخ أحدهم: رجل قد انتحر فابتسمت.. وجاء آخر كان يعرفني فلم يعرفني.. فابتسمت مرة ثانية.. نعم إن الروح تبتسم.. ولم أحزن هذه المرة لأن الذين كانوا يعرفونني لم يتعرفوا إلي.. فالأمر لم يعد مهماً.. لقد انتهت حكايتي مع الحياة.. وبدأت حكاية أخرى مع العالم الآخر.

وبالرغم من أن صلتي بالجسد قد انقطعت إلا أنني فرحت أنهم سينقلون الجسد إلى الوطن سأدفن تحت تراب بلدي.. كم أحب بلدي.. وكم أحب ترابها أنا منها وهي مني.. أنا أحمل ملامحها هي وتحمل ملامحي..

مرحى.. مرحى.. لقد عدت.. هذا وطني.. وظللت محلقة فوق الجسد.. وهالني زملائي الذين يبكون ويولون.. ولأنني في مقام يسمح لي الآن بأن أطلع على ما هو مخفي في الصدور فإنني عرفت أنه بكاء زائف.. وعجبت للمبالغة في إظهار الحزن.. لعله كان الشعور بالذنب لأن أحداً منهم لم يواسني حتى بالكلمة أثناء محنتي.. لعلهم يريدون الآن أن يظهروا في أجهزة الإعلام وأن يعرف عنهم الوفاء وهم في الحقيقة أبعد ما

يكونـــون عن الوفاء.. إنهم حقاً ممثلون بارعون. ودفنت.. وانتهت علاقتي بالجســـد.. وصعدت إلى مكان لا أعرفه.. وسيطر علي إحساس واحد وهو الســـلام.. وهـــو لـــيس كسلام الأرض، فهو سلام مطلق.. سلام من أجل السلام.. لا قلق ولا خوف.. فأدركت أن جوهر المرحلة القادمة هو السلام، وجاءني ملكان.. بدأ بالسلام.. سلام الله عليك.. فرددت سلام الله عليكما.

قالا: نحن جئنا لمراجعة الحساب.

فأطرقت خجلاً: قلت: أعرف أن ذنوبي كثيرة.

فابتســـما وقـــال: هكذا كنت تظنين.. رغم أنك تعرفين أن الله يغفر الذنوب جميعاً.

فقلت: وليست لي حسنات.

فابتســـما فـــوق ابتسامتهما الدائمة وقالا: بل حسناتك تفوق سيئاتك. فلقت كيف؟

قـــالا: لأنـــك كنت تحبين كل الناس.. لم تكرهي أحداً.. لم تحملي ضغينة لأحد.. وحاولت أن تسعدي كل الناس

قلت: وهل هذا يكفي؟ قالا: بل هذا هو كل شيء.

تجرأت حينئذ وطالتعتهما فملأني نور.

وتجولـــت فـــي نفـــس المكـــان على نفس المستوى فرأيت آخرين يحاســـبون.. رأيت رجلاً يأكل لحم أخيه ميتاً فعرفت أنه المغتاب.. ورأيت آخـــر يبـــتلع نـــاراً تكوي أمعاءه فعرفت أنه الذي أكل مال اليتيم.. فزعت وهرعـــت إلـــى مكـــان آخـــر.. فرأيت قوماً فرحين مستبشرين تلوح من وجوههـــم نضـــرة النعـــيم فعرفت أنهم الشهداء فأردت أن أنضم إليهم فلم

أستطع لأنهم كانوا في مقام أعلى. فعرجت إلى مكان آخر فصادفتني امرأة تكاد ترقص من شدة الفرح بعد أن وعدها الملكان ببيت في الجنة.. فسألت مـــاذا فعلت فعرفت أنها أطعمت قطة جائعة.. وكان بالقرب منها رجل في مثل فرحتها فعرفت أنه الذي سقي كلباً عطشاً.. اقتربت منهما فكانا كملكين وليسا من البشر من شدة رقتهما ومن قدر النور الذي يحيط بهما.

وتذكـــرت صديقي الذي أحبني بإخلاص وأحببته.. بحثت عنه فقد ســبقني إلـــى هـــذا المكان منذ سنوات.. فأشاروا إلى مقاعد يجلس عليها الصـــادقون.. حقـــاً.. كان صادقاً.. وأيضاً كان حنوناً.. قابلته.. فرح بي.. وفرحـــت به.. عرفت أن الإنسان في الحياة الآخرة يلتقي بمن يحب ويظل قريباً منه.

وأردت أن أنتقل إلى مستوى أعلى فقالوا لي بل ستبقين هنا.. سألت إلـــى متى فقالوا لي حتى تقوم القيامة.. وحانت مني التفاته صوب الأرض فهتفت هيا اصعدوا فأنا متشوقة للجنة.

الثمرة الناضجة

إذا نضـــجت ثمـــرة تسقط من عليائها إذ لم يعد مبرر لبقائها وتفقد الســـاق الرغـــبة فـــي إمدادها بعناصر الحياة فغيرها أولى، أو تشيخ على عودهـــا بعـــد أن يمضي أوانها وفي النهاية تسقط أيضاً معطوبة دون فائدة فللكائـــنات الحـــية أعمار، والعمر مراحل والأيام لا تمهل والزمن لا يعود للوراء..

وقـــد يكون من حظ ثمرة أن تشتهيها العيون وتتسابق نحوها الأيدي فـــيقطفها المحظـــوظ فتحظى بلذة أن تؤكل ويحظى بلذة ابتلاعها وتتحقق دورة الحياة بين الآكل والمأكول.

ولا أحـــد يعرف سر ثمرة نضجت على عودها ولم تمتد إليها يد.. وقـــد يكـــون هذا مفهوماً إذا لم تكن رأتها عين ولم تشتهها نفس، ولكن ما الحال إذا كانت قد أزاغت الأبصار ولوعت النفوس أهو قدر ثمرة معينة ألا تؤكـــل وأن تسقط أو تشيخ.. عجيب أمر هذه الحياة فهناك من الأسرار ما يستعصـــي علـــى الكشف، وليس كل ما هو منطقي قابل للفرض والتحقق، والسعي الحثيث قد لا يدني الإنسان من الهدف ولذا يصاب إنسان ما أحياناً بالحـــيرة ثم بالإحباط ثم باليأس فيتوقف عن الحركة ولا يفعل شيئاً منتظراً الأقدار أن تصرف أموره كما تشاء متقبلاً مصيره باستسلام وإن أسف على ذلك.

إن تتأخر فتاة معطلة من الجمال عن الزواج قليلاً أو كثيراً فهذا أمر معـتاد.. أمـا أن تبقى فتاة فائقة الجمال على عودها دون أن تمتد إليها يد فهـذا أمـر غير مألوف أو هو أمر ضد الطبيعة أو اتجاه الحركة الطبيعية للأشـياء فالأصل في الفطرة الإنسانية هو حب الجمال ولولا ذلك لما رفع الإنسـان عينيـه صوب السماء ليملأ نفسه بالحسن الأخاذ لكل ما أبدع الله فيـتأثر ويهـتز وينتشي وينشد ثم يحاكي الجمال في كل ما يقول وكل ما يفعل.. ثم يعلو إلى ما فوق السماء ويقترب من النور الإلهي بعقله لا بعينه فيؤخذ ويذهل ويخشع ويخر ساجداً ولا يقوى على ما هو أبعد من ذلك لأنه يعرف أنه غير مؤهل لمطالعة الجمال المطلق وأن ذلك فوق طاقته إذ يكفيه الأثر وليس المصدر حتى يؤذن له.

ولأن الأصل هو الجمال فإن الله أنعم على الإنسان باستقبال الجمال بكـل حواسه وأنعم عليه بالتذوق الجمالي على كل المستويات جسداً ونفساً وروحاً.. الجسد يتلذذ والنفس تتلذذ والروح تتلذذ وأنعم الله على الإنسان أن يكون هو ذاته صانعاً للجمال مبدعاً للفن في السلوك وفي المظهر. ثم خص بعـض عباده بالجمال وجعله من الخارج والداخل.. فتطالع إنساناً فيذهلك سحر وجهه وتطالع أعماق إنسان فيذهلك سحر روحه..

متعة الحياة أن تستمتع بالجمال.

وفخر الحياة أن تصنع الجمال.

وزهو الحياة أن تكون جميلاً.

هـذه الفـتاة لا توجـد من هي أجمل منها ولكنها كالثمرة المحرمة تذوب من أجلها القلوب وتتحرق النفوس وتتعذب الأبدان وتتلوى الأرواح، ولكن لا أحد يتجرأ على أن يمد يده.

ولـدت جمـيلة.. انبهر الجميع بحسنها وتشكلت شخصيتها على أن تـبحلق فـيها العيون وأن تشهق الصدور اعتادت المديح والتدليل شعرت بالتمـيز والـتفوق.. لـم تجـد صعوبة في أن تحظى بالاهتمام وأن تنعم بالترحيب نصبوها الأميرة على شقيقاتها وقريباتها وجيرانها وزميلاتها بل على كل فتيات الدنيا.

وحقاً إذا نظرت إلى وجهها وجدت جمالاً غير معتاد ومن الصعب وصفه.. فوصف أنها أجمل فتاة هو وصف يعني المقارنة مع غيرها وهذا صعب.. إذن هي مسألة أن تشعر بها فحسب دون مقارنة مع آخريات حتى إن استعنت برصيدك من صور الجميلات التي تحتفظ بها في ذاكرتك.

ولهـذا فمع هذه الفتاة بالذات فأنت لا تملك إلا وصف شعورك فهو جمـال فـيه بساطة وفيه ألفة.. وفيه فرحة.. أي أنك تشعر بالسرور البالغ حين تراه.. وتشعر بألفة وكأنه ملكك أنت شخصياً وتشعر بالاقتراب وكأن بينكما صداقة وتشعر بمودته، حقاً هناك جمال ودود وهو ما ينبع من نفس ودود وهـو خلو من أي شر وأي عنف وأي عدوان أو أي قسوة. جمال لا يصـدك ولا يحرجك ولا ينهال عليك بعتاب أو لوم أو نقد وإنما يرحب بك بسـمو ويحـترمك بعفة ويفرض عليك أن تتعامل معه بنفس درجة السمو والاحـترام والعفة وكأنك تتعامل مع شيء مقدس فتتوارى غرائزك خجلاً وتتراجع نوازعك السفلية دون ندم أو معاناة.

وكان الأب والأم من الذكاء بحيث يرسّخان فيها جبلاً من القيم على رأسـه شجاعة الصدق.. وكان غريباً هذا الوعي من الوالدين أن يدركا أن أحوج ما تحتاج إليه ابنتهما الجميلة هو شجاعة الصدق أن تكون نفسها. أن تكـون واضـحة.. أن تكون شفافة.. أن تكون على طبيعتها ألا تتكلف ألا

تــزوق.. ألا تلــف وتــدور حــول المعنى.. ألا تخفي حقيقة.. ألا تخاف الحق.

ولكن شجاعة الصدق تحتاج إلى شيء آخر شديد الأهمية وهو ذكاء العبارة ورقة التعبير وأدب المواجهة وكيفية توصيل الرسائل الصعبة دون إحراج ودون جرح.

لقــد توقع الأب والأم أن ابنتهما الجميلة ستواجه صنوفاً متعددة من الرجال منهم من تنقصه الكياسة ومنهم من يفتقد اللباقة ومنهم من تلح عليه رغــباته للتحقق الفوري، ومنهم يساوم ويقايض ويبتز ولذا أكسبوها مقدرة إيقاف كل شخص أبعد قليلاً من الخط الأحمر فيقرر هو ألا يتجاوزه وبذلك لا تخسر كل الناس. أرادوا لها أن تحتفظ بصداقة كل الناس أو على الأقل ألا يوجــد لها أعداء كثيرون لأنه من المعروف عن الذين يتعرضون للصد العنــيف. والزجر الشديد وحين يمنع عنهم التهام الثمرة فإنهم يتحولون إلى أعــداء. أراد الوالــدان أن يجنــبا ابنتهما هذه الصعاب فأكسبوها شجاعة الصــدق مــع رقــة الصد ولهذا وقف جميع الرجال الذين اشتهوها خلف الخــط الأحمــر بقلــيل وبإرادتهم وعن رضا ثم حولوا علاقتهم معها إلى صداقة!!

ووعــي الوالدان، أهمية العلم والثقافة وربما اكتشفا لديها الاستعداد لذلــك فمهــدا لهــا الطريق حتى تألقت فازدادت جمالاً وإن كانت في قمة الجمــال ولــذا فالإضـــافة لم تكن كمية وإن كانت وجهاً آخر أو بعداً آخر للجمـــال أي تم ترصيع تاجها بجوهرة أخرى ثمينة وصارت نجمة المحافل الثقافية والعلمية وفتحت لها الأبواب، وكان جمالها هو المقدمة ولكنها كانت تــتقدم كالقطــار بفضل ذكائها وعطائها وعلمها وثقافتها ولذا فإنها أبداً لم

تصلح للحب الرخيص أو للحب مدفوع الثمن وبالتالي لا يمكن أن نرجع نجاحها إلى جمال وجهها وإنما إلى جمال عقلها.

نضجت الثمرة تماماً وتكاثف الجمهور العطشان والجوعان تحت الشجرة ولكنهم اكتفوا بالتطلع دون أن يمد أحدهم يده وهم كُثُر..

وانتظرت .. وانتظرت..

ربما لم تكن تسعى..

ربما كانت تتأنى لنجم غير موجود..

ربما أذهل الناس جمالها فاكتفوا بأن يتملوا نور القمر دون محاولة الوصول إليه.

ربما خاف بعض الناس هذا الجمال المذهل.

ربما كانت أعلى من أن يحاول أحد الصعود حيث تقبع الثمرة على أعلى فرع.

ربما من اكتمال جمالها تعطلتّ رغبات الرجال.. تلك الرغبة التي تلح على الرجل فيتقدم نحو الأنثى.

ربما حاول بعضهم في البداية أن يأكلها حراماً وحينما وجد أن ذلك مستحيلاً أصبح ينظر إليها من منظور آخر.

ربما خشي من يفترسونها أن يفسدوا هذا الإحساس الرائع بعلاقة زواج وهي علاقة قد تُفسد أحياناً السامي من المشاعر لقد كانت في عقول بعض الرجال كصورة أقرب للخيال أو كلحن سماوي أبعد من أن يردده الإنسان بحنجرته.

ولهـذا لـم تـتزوج واقتربنا من السن الحرجة وتعديناها تزوجت صغيرتان دونها في السن ودونها في الجمال وبقيت هي.

ولكـنها لم تقلق ظل رأسها مرفوعاً وأنفها شامخاً.. لم تتهاون.. لم تـتخل عـن السـياج الرقـيق التي أحاطت به نفسها لم تبتذل وإنما ظلت الأمـيرة.. ظلت القمر في عليائه، ظلت الصورة التي لا يستطيع خيال أن يرسـمها، ظلـت اللحـن الذي لا يأتي إلا من السماء وكلما صمدت زاد الإعجاب بها وزاد الإحجام عنها.

ولكن الطبيعة تعلمنا دروساً قاسية وتحذرنا بشدة فالثمرة التي تنضج قد تسقط أو تشيخ على عودها.

أفراح العيد

خلق الله الفرح ليحب الإنسان الحياة.. فحب الحياة والفرح قرينان.. وأنت في حالة الفرح يخف وزنك فتطير لتحضن الدنيا كلها بعينيك وتراها غاية في الحسن تسر الناظرين وتفعم قلب العاشقين له.. ما أجمل الحياة في ظل الفرح.. وما أمتع الدنيا في ظل العشق.. والمتعة تكون للروح والجسد معـــاً.. ترقص الروح وينتشي الجسد.. تسعد الروح بأنها تسكن ذلك الجسد ويســعد الجســد لأنـــه وعـــاء لهذه الروح.. وهذه هي الحياة.. وما أجمل الحـــياة.. أنا حي معناه أنني قادر على الفرح.. وأنا فرح معناها أنني قادر على العشق.

أنت في هذه الحالة تحب الأرض والسماء معاً.. أي تحب ترابيتك.. تحـــب الطين الذي صنعت منه.. تحب جسدك.. ماديتك.. بشريتك.. تحب الصــورة التـــي خلق الله الإنسان عليها.. تحب إبداع الله في تخليقه للكيان المـــادي للإنســـان.. تحـــب تلك الأحاسيس التي تنتاب جسدك وتحقق لك متعة.. تحن للطعام والماء والنوم والجنس.. وتصل إلى ذروة الرضا تحت ضـــغط من نوازعك الترابية.. ولا يتحقق ذلك إلا من خلال إنسان آخر أو مـــع إنسان آخر. ترابيتك وترابيتها.. هذه هي الصياغة الإلهية.. خلق الله الدوافع، وخلق سلبيات هذه الدوافع وخلق المتعة التي تتحقق من تلبية الدافع ومـــزجها بالفـــرحة.. المـــتعة فرحة.. والفرح توقع للمتعة.. الفرحة هي

ممارســة الحــياة.. وهــي أيضاً ممارسة الأمل.. وممارسة الأمل معناها السـعي لتحقـيق غاية من أجل إرضاء دافع.. ولهذا فالحياة ذوق وتذوق.. وفــي هذا يتفرد الإنسان.. وذلك لأن لكل إنسان تاريخه الخاص.. التاريخ العــام هو ما يتفق فيه كل البشر.. أما التاريخ الخاص فهو الطعم والرائحة والملمس والفكرة والمعنى والمضمون والذاكرة التي خلفتها الأيام من خلال أحــداث بعينها وقعت لإنسان بعينه.. ولهذا فنحن نختلف فيما نحب ونعشق ونهوى ونتمنى.. ومن أجل هذا تنوعت الإنسانية رغم التوحد في الترابية.

ورغــم إتفاقنا على أن القمر هو أجمل الوجوه حين يكتمل بدراً إلا أن كلاً منا يحب وجهاً مختلفاً.. يقول عنه إنه مثل القمر.. ورغم أن القمر المــرجع واحــد في السماء إلا أن قمري يختلف عن قمرك.. هذا هو حبنا لــلأرض.. الترابــية.. أما حبنا للسماء فهو ينبع من الروح.. فالسماء لها تكوين مختلف مثل أن لها معنى مختلفاً.. ومادة الروح الوحيدة القادرة على تــذوق السماء.. السماء لها مذاق يختلف عن مذاق الجسد.. ونشوة الروح غــير نشــوة الجســد.. فالدوافع تختلف.. والحاجات تختلف.. ومُرضِيات الحاجات تختلف ولذة الذروة تختلف..

فــلا طعام ولا شراب ولا نوم ولا جنس.. ثمة دوافع أخرى تخلق احتياجات معينة وتنزع إلى تلبية خاصة تتحقق منها تلك النشوة المختلفة.. حاجــات الــروح هــي الإيمان والسلام والأمان.. وتلبية هذه الحاجات لا تــتحقق إلا من خلال حب الله وحب الناس.. إن لحظة الحب هي الذروة.. لحظة أن تقول لله أنا أحبك.. أنا أعبدك أنا أعشقك.. وفي هذه الحالة تكون قــادراً على رؤية نور الله في قلبك، أو حسنة فيتجلى لكل جوارحك فتهتف سبحان الله.

ولحظة الحب أيضاً مع إنسان آخر هي الذروة.. وأن تحب إنساناً آخر معناها أنك تؤمن به.. أي ترعى وحدك جمال روحه.. فالروح لا تحب إلا كل جميل.. والجمال الذي تعشقه الروح هو جمال الخير.. فالخير يتربع على عرش الجمال الذي تهواه الروح.. وما أروع أن تؤمن بإنسان وما أروع أن يؤمن بك إنسان آخر.. فأنت ترى فيه الخير وهو يرى فيك الخير.

والفرحة هي غاية السرور وقمة الرضا وخلقها الله لسعادة الإنسان.. وخلق لها مناسبات.. يا سبحان الله.. خلق الله أوقاتاً يدعو الله فيها الإنسان ليفرح.. إنها دعوة للفرح.. ولكل دعوة مناسبة.. والمناسبة هي العيد.

وحين يدعوك الله للفرح فهذا معناه أننا نستحق أن نفرح أي تستحق أن نسر وأن نسعد، إنها مكافأة ربانية، مكافأة من الله للإنسان، والمكافآت تكون لمن يستحق ولمن هو جدير بحب الله.. وتصبح المكافآت الحقيقية هنا استحقاقنا لحب الله وأننا جديرون بهذا الحب.. هذا هو المعنى الأعمق للعيد: الله في هذه المناسبة يقول للإنسان أنا أحبك.. وكأن الله اخترع هذه المناسبة لنفسه لكي يعطي لنفسه الفرصة لكي يقول للإنسان أنا أحبك.

ويكون العيد أيضاً مناسبة لكي يقول إنسان إلى إنسان آخر أنا أحبك.. ولهذا يتزاور الناس في العيد.. ويقول الإنسان لإنسان آخر: كل سنة وأنت طيب.. ومعناها أنني أحبك أو أنني أقدرك أو أنني احترمك ولهذا أتمنى لك أن تكون في العام القادم في حالة طيبة لأنك تستحق ذلك.. لأن وجودك في الحياة مهم.. وربما وجودك في حياتي الشخصية مهم.. أو لأنك أهم إنسان عندي.. وهذا يعني الحب.. وفي العيد أيضاً نتبادل

الهدايـا.. والهديـة هـي رسالة.. هي رسالة معنوية قبل أن تكون رسالة ماديـة.. ما أمتع أن تتلقى هدية.. والهدية معناها أنك شيء خاص بالنسبة لي.

وفي العيد نشتري ملابس جديدة.. وذلك لأنني أريد أن أبدو لعينيك أجمل وأزهى وأبهى.. والجديد له نضارة وله رونق وذلك إيحاء بأن الحياة تتجدد.. وأن الشباب دائم.. وأن الحيوية باقية.. حيوية الروح قبل الجسد.. ومـا حـيوية الجسـد إلا فيض من حيوية الروح.. وكل إنسان على وجه الأرض يسعد بالملابس الجديدة.. وكأنه هو ذاته يصبح جديداً.. كم أود أو أظـل أجمل الخلق في عينيك.. وفي العيد نأكل الحلوى.. حلوى خاصة لا تكـون إلا فـي العيد.. وبعيداً عن العيد لا يكون لها طعم إذ لا يكون لها معنى.. فالمعنى تكتسبه من العيد ذاته.

فالعيد مظاهر ومصاحبات وتداعيات ومن شدة الفرحة فإننا نحرص علـى هـذه الارتباطات. وكأننا نتشبث بكل ما يؤكد لنا أننا في العيد فنحن نحـتاج بشدة لأن نفرح.. الفرح يزيل تلال الهموم التي تراكمت منذ العيد الماضـي.. العيد تطهُّر للروح والجسد.. تطهُّر لكل الإنسان.. تطهر لكل الـناس.. وفـي العيد نشدو بأغاني خاصة.. باقية منذ زمن بعيد.. أغاني الزمن القديم أجمل من أغاني الزمن الحاضر وذلك لأنها تثير لدينا أحاسيس الفرح الأول..

والفـرح الأول هـو الفـرح البريء والفرح الخالص وهو منتهى الفرح.. حين كنا أطفالاً فإن أغاني العيد تجعلك تشم من جديد رائحة الجلد الجديـد للحذاء الجديد الذي نمت محتضناً إياه ليلة العيد.. وإذا أغاني العيد تجعلـك تستعيد أرق النوم ليلة العيد تشوقاً لصباح العيد.. وإذا أغاني العيد

تجعلك تستعيد قمة فرح الاستيقاظ فجر العيد بعد نوم قليل وأنت تمضي إلى الصـــلاة في رفقة الأحبّاء صغاراً وكباراً.. وإذا أغاني العيد تجعلك تستعيد رنيـــن الـــنقود وملمسها والتي انتفخ بها جيبك وقدرتك على أن تشتري ما تحب وما تشتهي وما كنت غير قادر على شرائه في أي وقت مضى.. وإذا أغانـــي العيد تجعلك تسترجع متعة حرية اللعب والانطلاق بلا حدود ولأي وقـــت. وإذا أغانـــي العيد تجعلك مستمتعاً بشعور يقيني بأنك في هذا اليوم بـــالذات لـــن تتلقى أي عقاب.. إنه قمة التحرر من الخوف.. لا عقاب في العيد.. ولا خوف في العيد.. العيد أمان واطمئنان .. العيد يؤكد حب الكبار لـــنا. وأغاني العيد تشد قلبك إلى ذلك الوجه الجميل الذي أحببته من بعيد، وخلت أنه هو الآخر يحبك.. ويجيء العيد فرصة للرجوع إلى ذكرى حب غامض محاط بأسرار لم تفض بها بعد.. عالم سحري.. ومشاعر مبهمة.. وامـــتلاك لكل الكيان.. وتخيل المحبوب على أنه ملاك منزل من السماء.. والغريـــب أن ذلك المحبوب لم يغادر الذاكرة بعد طوال هذه السنين بالرغم من أنك لم تتبادل معه كلمة واحدة.

أغانـــي العيد القديمة هي التي تأذن بقدوم العيد حيث يتردد أن الليلة عيد.

أصل القسوة

خـــرج مـــن سرادق العزاء إلى المطار مباشرة.. نام فور صعوده الطائـــرة.. داهمه كابوس بأن أمه دفنت حية واختنقت داخل قبرها.. صحا علـــى الوجــه الجميل للمضيفة وهي تقترب منه فتبخر الضيق الذي خلفه الكـــابوس.. وكالمعتاد لم تحرك ذرة من جسده وإن بعثت في نفسه السكينة التي افتقدها بسبب موت أمه المفاجئ.. اهتزت الطائرة بعنف واعتذر القائد بسبب المطبات الهوائية.. دعته المضيفة إلى إحكام ربط الحزام وعرضت علـــيه طعاماً فرفض.. وطلب كوباً من الشاي.. لاحظت بذكاء أنثوي فائق أنها لم تثره فغضبت وأصرت أن تحرك المياه الراكدة.. مالت برأسها أكثر وهي تضع أمامه الشاي مما يتيح له فرصة أن يشتم عطرها.. كانت شديدة الـــثقة بهـــذا العطر، خاصة مع الرجال المتحفظين.. لم تلحظ أثراً لفعلتها فاستمرت في الوقوف بجانبه وهو يشرب الشاي.. وسألت الأسئلة المعتادة فاخبرها بأنه في رحلة عمل قصيرة.

وفـــي ثوان أخبرته بكل شيء عن نفسها، لاحظت استرخاء بعض عضلات وجهه المتجمدة.. وكان فعلاً قد شعر بالراحة لحديثها.. لم يفتها أن تلحـــظ خلــو أصابعه من خاتم الزواج رغم عمره الذي يبدو وكأنه تعدى الأربعين. فقفزت في وجهه كنمرة متوثبة بسؤالها مما اضطره لأن يفصح لها بأنه غير متزوج، فشعرت بسرور عميق لم تفلح عيناها في إخفائه مما

سهل له قراءة مشاعرها وعجب من أمرها.. ولم يكن صعباً عليها بعد ذلك أن تتعرف على اسمه من قائمة ركاب الطائرة وهي تضمر شيئاً في صدرها، اعتذر القائد مرة ثانية عن صعوبة الهبوط في المطار لكثافة الضباب الذي امتد من السماء إلى ما فوق الأرض بقليل وحجبها تماماً عن أن تراها أي عين متشوقة.

وفي الطريق إلى الفندق كانت الأمطار تهطل بغزارة واللون الرمادي الغامق يغطي المدينة مما يبعث على الكآبة فتذكر أمه التي ماتت لتوها وإن لم يتألم.

وفي المساء كان الاجتماع الأول وحقق انتصاراً وعقد صفقة مهمة، هزه النجاح فتحركت رغبته فذهب لتوه إلى مكان يعرفه ولا يخيّب رجاءه في إسعاده ولكن قد نسى أمه تماماً وانمحت من ذاكرته صورة المضيفة الجميلة.. بمجرد أن استقر على مائدة تحتل مكاناً بارزاً حتى انضم إليه شاب وسيم تجاذب معه حديثاً في مثل هذه الظروف، وانصرفا معاً إلى الفندق.

وأصبح عليهما النهار، ونهض الشاب قبله واستأذنه في الانصراف، فمد له يده بالمال الذي طلبه. وحين فرغ من حمامه اكتشف سرقة ساعته الثمينة فقرر أن يذهب إلى نفس المكان ليستردها حتى وإن لجأ إلى الشرطة. كان الصباح قاتماً وبارداً.. وحقق توفيقاً أكثر في الاجتماع الثاني.. عاد إلى الفندق في وقت متأخر، لمح الشاب في البهو فاندفع ناحيته ليقبض على رقبته.. ابتسم الشاب وأخرج الساعة من جيبه متعللاً بأنه أخذها عن طريق الخطأ.. كانت له نصف شهية في اصطحابه إلى غرفته فجلسا في البار.

وأخـــيراً صعدا.. وفي الصباح اكتشف مرة ثانية اختفاء الساعة بعد أن انصـــرف الشاب فعجب وابتسم.. وبينما هو يوقع على فاتورة الحساب شعر بالشاب من خلفه.. ربما اشتم رائحة.. وبينما هو يناوله الساعة انفجرا فـــي الضحك بصوت توزع في أرجاء البهو مما لفت كل الأنظار.. وأصر الشاب على توديعه حتى المطار.. احتضنه وقبله وانصرف.. ولكنه استدار وناداه وأعطاه الساعة هدية له.

وفـــي رحلـــة العودة نام طوال الوقت.. وحلم بأمه وهي في ثياب مضـــيفة الطائـــرة.. ثم وهي تغازله فتقزز وحين استيقظ تذكر تذكر وجه المضيفة الجميلة التي رافقته في رحلة الذهاب وأيقن أنها تشبه أمه إلى حد كبـــير فكرهها مثلما كره كل شيء يمت بالصلة لأمه رغم أنه افتقدها بعد موتها. ولأول مرة يسال نفسه هل أحببتها أم كرهتها.. وأجاب بحزم إنه لم يحـــبها ولو لحظة في حياته.. واستعاد في رأسه شريط الذكريات الأسود.. وحاولـــت الصـــور أن تفلت منه فتشبث بها ليكرهها أكثر وأكثر.. هاهي أمامه وعمه يقبلها بحرارة.. ثم وهي في الفراش مع صديق لها.. ثم وهي تغيب عنه ثلاث سنوات قضتها في السجن.. ولكنه لا ينكر أنها أحبته بشدة وأغدقـــت عليه.. لم تتم بعيدا عنه إلافي حالتين: حين دخلت السجن وحين مرضـــت بشدة فاضطرت لدخول المستشفى.. وأوضح الصور التي عبرت رأســـه وأشـــعلتها كانت صورتها وهي تضربه بقسوة حين سرق قلماً من زميله في المدرسة.

أمـــا في الصورة الثانية التي كادت تفتك برأسه فهي صورتها وهي تضـــربه بجـــنون إلى حد الموت حين ضبطته مع صديق له في الفراش.. ومـــن يومها فرضت عليه رقابة صارمة.. ولكنه كان يستطيع الإفلات في

أحيان غير قليلة ليمارس الشيء الوحيد الذي أحبه في حياته وهو أن يكون فـي صحبة شاب قوي ووسيم. لم يستطيع في حياته أن يقترب من امرأة.. كانت كل امرأة هي أمه، ففقد رغبته في أي امرأة. وخاف من كل الرجال وغـار مـنهم لأنهـم نافسوه في حب أمه.. فاستسلم لكل الرجال ليتفادى عدوانهـم.. أراد أن يكـون مثل أمه في هوسها بالرجال.. وانتهى الشريط بصـورة أخـيرة وهـو يـنزلها إلى قبرها.. واختلطت لديه كل المشاعر متضـاربة ومتناقضة.. لم يتفوق شعور على الآخر ولم ينتصر إحساس ما أو يتمـيز لكـي يسـتطيع أن يحـدده.. وإنما كانت فوضى في المشاعر واضـطراباً فـي الأحاسـيس.. وعجـب لهذا المزيج الغريب من الحب والكراهية، والود والبغض، والقبول والاشمئزاز، والاستحسان والنفور..

وفـي الـنهاية شعر بتأنيب الضمير لأنه تذكر أنه تمنى موتها في أحـيان كثـيرة.. ثم غادر المدفن ليأكل بشهية ويستحم ويلتقي بصديق لقاء تعمده في هذا الوقت بالذات نكاية في أمه وليكون أجمل وداع لها.

ثـم ذهب إلى السرادق ليتقبل العزاء ثم اتجه للمطار ليلتقي بالوجه الجمـيل للمضيفة التي بعثت في نفسه السكينة رغم أنها تشبه أمه إلى حد كبـير.. نسـيها أسـبوعين ثم عاد وتذكرها.. بل شعر بحنين لأن يراها.. مجـرد أن يراها لا أكثر.. هل يكون قد شفي فجأة من مرضه!! هكذا سأل نفسـه.. ثـم أجاب على الفور بأنه مازال يشعر بالنفور من أي امرأة إذا تصورها في إطار علاقة عاطفية.. ومازال هوسه بنفس جنسه.

فشلت كل المحاولات غير الجادة لكي يراها، ولكنها هي التي سعت إليه. وشاركها في الاندهاش لتلك المصادفة رغم أنه كان يعلم أنها مصادفة متعمدة ومرتبة..

وســرعان مــا ألحقها بالعمل عنده لكي تتاح له فرصة أرحب لكي يــراها.. وهيأ الفرص العديدة لأن يراها لساعات طويلة ليستمتعا بمفردهما بالأحاديث العذبة ولكنها فشلت في أن تدفعه لما هو أكثر من ذلك.. وعجب كل من يعرفه لذلك الاهتمام غير المتوقع بامرأة.. ولم يجرؤ أحد أن يفضي لها بحقيقة أمره وتصوروا معجزة على وشك الوقوع..

وفــي مــرة رآهــا تتبسط في الحديث مع أحد الشبان ففصله من العمل.. وفي مناسبة أخرى سمعها تبدي إعجاباً باجتهاد شاب ألحق بالعمل ففصـــله.. وكان ذلك هو شأنه في التعامل مع موظفيه.. كان قلبه أغلظ من حجــر.. وما كره في حياته إلا رجلاً يحاول أن يتفوق عليه.. وما كره في حياته إلا امرأة تحب رجلاً.. في هذه الأحوال كانت تتملكه قسوة تجعله لا يتورع عن سحق ذلك الرجل أو تلك المرأة.

وفــي لــيلة مــن ليالي الربيع كانت السماء صافية أكثر مما ينبغي توحـــي بأنه لن يكون هناك أي كدر في هذه الليلة، وكانت النسمات مشبعة برائحة الياسمين التي تبعث الهدوء في النفوس والأجساد بمجرد استقرارها فــي الصــدور، وتوسطت درجة حرارة الجو فاستحالت برودة الشتاء إلى دفء ربيعي يبعث على السرور..

أمــا هــو فقد استند بكل ظهره إلى شجرة عجوز ومالت هي عليه تهمــس رغــم خلو المكان البديع من البشر. وفجأة وبدون ترتيب مسبق، وبدافــع مــن الظمأ الذي اشتد، انقضت على شفتيه فبهت وسقط منه قلبه وارتعد كله وأثلجت شفتاه، فانصرفت عنه وقد فهمت كل شيء.. واستحال حــبها له إلــى شفقة وازدادت رقة معه ولكن بجسد بارد جعل رقتها تبدو كعلاج لمريض ميئوس من شفائه وقد اقترب من الموت.

تنبهــت كل حواسه لمراقبتها.. كان على يقين من أنها ستبحث عن رجــل آخــر.. رجل حقيقي من وجهة نظرها.. وكأن معاشرة النساء هي الدلــيل الأوحد للرجولة.. وترهقنا النساء بعقد المقارنات والخيانة وتحطيم الأفــئدة. لعــنة الله علــى كــل نساء الأرض.. ولعنة الله على كل رجل يخــون رجــلاً آخــر مع امرأته.. وتعساً لكل رجل تذله امرأة وتفسد كل حــياته.. والمــوت هــو العقاب العادل لكل خائن وكل خائنة.. وجبان من لا ينتقم.. وأنا لست جباناً.. إذا خانتني فسأقتل كل نساء الأرض وكل رجال الأرض

أصابه أرق عضال.. وفي الأحيان القليلة التي كان ينامها كان يرى أمه وهي تصفعه وتبصق على وجهه ومعها رجل يركله في بطنه ثم يتأبط ذراعها ويمضيان معاً.

وأخيراً لمحها تركب السيارة مع شاب يعمل عنده.. أصابه ألم شديد فــي بطنه. اشتم رائحة المؤامرة.. لقد حاول هو نفسه مع هذا الشاب ولكن الشــاب أبى. لماذا اختارت هذا الشاب بالذات.. أم هو الذي اختارها.. لابد أنه صارحها بما كان من أمره معه.. ولابد أنها صارحته بخيبة أملها فيه.. لعــل هذا ما جمعهما معاً.. وبالتأكيد سيكون هو موضوع حديثها وهما في الفــراش معاً.. سيتباهى هو برجولته، وستكيل هي له المديح وتعقد مقارنة بينهما.

قــال بتصميم: إذن لابد أن يموتا الآن.. تتبعهما.. طرق الباب ففتح له الشاب، أفرغ رصاصة واحدة في رأسه ثم انطلق كالمجنون يبحث عنها فــي أرجــاء المكان.. لم يعثر لها على أثر وكأنها تبخرت. أخذ ينادي: لا تخافي يا أمي.. أظهري.. لن أقتلك..

خرجـت مـن أحد الأركان وقد تكوم جسدها من الرعب. تحشرج صوتها وهي تخبره بأنها ليست أمه.. لم يمهلها فأطلق الرصاصة الثانية في بطنها والثالثة في قلبها والرابعة فيما بين عينيها.

انسـحب مـن المكان بهدوء، ظهر في كل الأماكن التي اعتاد أن يظهـر فيها وبدا أكثر من طبيعي.. في اليوم التالي مباشرة سافر أمام كل الناس.. عاد بعد يومين.

اتجـه إلى مكتبه مباشرة.. وجد موظفيه في حالة وجوم.. بعد قليل جاء المحققون واستأذنوه في بعض الأسئلة الروتينية.

كـان السـؤال الأول كـيف عرفت بالخبر.. أجاب باطمئنان: من الصحف: قال المحقق إن الخبر لم ينشر في الصحف بعد.

اضـطرب اضـطراباً شـديداً وعاد ليقول بل عرفت من موظفي المكتب..

أجهـز علـيه المحقـق حين قال له: إن الموظفين لا يعرفون حتى الآن.. وعلـى غـير مـا توقع المحققون كان شديد التماسك وهو يعترف اعترافاً تفصيلياً وإن لم تخل مقلتاه من طبقة رقيقة من الدموع جعلت عينيه تلمعان.

ضلالات الخيانة

أنا أرفض اعتذارك هكذا صرخت في وجهه.. وانهارت باكية.. من حقي أن ارفض اعتذارك.. وهل هناك اعتذار عن جريمة قتل، لقد طعنتني في شرفي، والشرف ليس الإخلاص فقط ولكنه أيضاً الصدق والأمانة والاحترام، إنه كل القيم التي ترتكز عليها حياتي، طعنتك كانت سامة إلى الحد الذي أزهق روحي.. اعتذارك نوع من السذاجة يدل على أنك لا تعي المعاني الحقيقية المرتبطة بالشرف، سهولة الاتهام وسرعة الاعتذار عنه تعني الخلل الشديد في بنائك الأخلاقي، وربما يخفي خلفه خللاً أخطر في بنائك النفسي وأشك حتى في أنك تعي ما أقوله لك الآن، ويا ليت أن لديك دليلاً على خيانتي.. دليلاً يقبله العقل وقابلاً لأن تثبته وقابلاً في نفس الوقت لأدحضه، إن دليلك هو أكبر دليل على الضلالات التي ارتكزت عليها في توجيه الاتهام لي، إن دليلك هو أكبر دليل على الخواء الذي تتحرك داخله فقضيتك باطلة مثلما أن قواعد الارتكاز عندك كلها باطلة زائفة خاوية متهاوية ينخر فيها السوس وتقرضها الفئران السامة.

تتهمني بأنني خنتك مع صديقك قلتها بهدوء في جملة توسطت حواراً بيننا لا يتعلق بموضوع الخيانة" هذه يا ربي من علامات الساعة الكبرى، أن يتهم الزوج زوجته بالخيانة وهو مبتسم يحتسي الشاي، ثم يتراجع بنفس البساطة وبنفس الجدية التي أكد بها اتهامه..

وما دليلك ؟

دليلي هو النظرات المتبادلة بينكما.. اهتمامك بالسؤال عن أخباره. إعجابك بإنجازاته.. انبهارك بشياكته..

بالسخافة ما تقول.. ولا اقول بالفظاعة ما تقول، فاتهامك غير جدير بكلمة فظاعة، فالفظاعة تنم عن جرم خطير أما السخافة فتنم عن جرم حقير وتافه. وإذا كنت تفهم فاتهامي لك بالسخافة والتفاهة والحقارة أضخم وأبشع من اتهامك لي بالخيانة، ورغم ذلك تطلب مني أن أسامحك وأن استمر في الحياة معك.

واستمرت الحياة ونسيت اتهامه لي بالخيانة، ولكن لم أنس أنه إنسان ضئيل.. وفي نفس الموعد بعد عام عاود اتهامه وفي هذه المرة اختار زميلي في العمل كشريك لي في الخيانة ولكنه هذا العام كان أفضل من العام الماضي فقد انفعل وثار وهدد وتوعد وتركت البيت.. وبعد أربعة أشهر عدت بعد أن اجتمع على كل الناس الذين وسطهم.. عدت وقد خرج من قلبي تماماً، وعشت من أجل أولادي.

ولكني لاحظت تدهوراً قد أصابه، تلصصه على تليفوناتي، مراقبته لي، مفاجأتي بزيارته لي في العمل، تفتيشه لحاجياتي.

وتحملت وبذلت جهداً مضنياً لطمأنته، فيهدأ أحياناً ويقلق أحياناً أخرى، قلت لنفسي ربما سلوكي يستفزه ويقلقله فتحفظت وتركت العمل مؤقتاً، وقللت خروجي من البيت إلا للضرورة القصوى، فعاد إلى طبيعته وعاودني صفائي النفسي وشعر بأمل في أن أستعيد مشاعري كزوجة لهذا الرجل.

ومـــا أن انـــتهى العام حتى عاودته الشكوك والظنون، وثار وعنف وكســر ذراعي وخرجت من البيت إلى غير رجعة.. أما هو فتأكيداته غير قابلة للنقاش ويقسم عليها.. هدوء يثير الشك في صحة تأكيداته ورغبته في استعادتها إلى البيت برغم أن يقينه من خيانتها يؤكد ضلالاته، إلا أنه يتألم مـــثل أي زوج تخونه زوجته، يرى أن هذه هي نهاية العالم وأن أي كارثة مهمـــا كان حجمها تتضاءل أمام خيانة زوجة، وأنه لا معنى لأي حياة إذا كانـــت هناك ولو زوجة واحدة خائنة في أي مكان في العالم، وأن السعادة الحقيقية هي مع زوجة صالحة، وأن صلاح الزوجة يعادل كل كنوز العالم.

ما دليلك:

لا يســتطيع أي رجــل في العالم أن يقدم الدليل الناصع على خيانة زوجــته إلا إذا فاجأهـــا في الفراش مع عشيقها وهذا أمر صعب تحقيقه، ولكـــن هـــناك علامـــات أخرى يستطيع أن يكشفها الزوج ولا يخطئها أو يتجاهلها إلا كل بليد الذهن والشعور.

ما هذه العلامات؟

مـــا رأيـــك فـــي الملابس الفاضحة التي تكشف أول ما تكشف عن ســـاقيها وصـــدرها!! مـــا رأيك في الضحكات المجلجلة خاصة في وجود الرجال؟! وما رأيك في تقبلها لأحاديث مكشوفة مع الرجال!! ما رأيك في سهولة تعرفها بأي عابر سبيل؟!

هذه ليست علامات خيانة، ولكنها مظاهر سلوكية قد تدان في وسط اجتماعي معين ولا تدان في وسط آخر.

وفي رأيي أن من تأتي بهذه الأفعال لابد أن تكون خائنة.

وهل حاولت نصحها لتعديل سلوكها بشأن ملابسها وضحكاتها وسهولة تألفها مع الرجال؟

حاولت دون جدوى إذن أنت لا تأثير لك عليها.

بل رغبتها في الخيانة أقوى..

ولماذا تريد عودتها إليك رغم تأكدك من خيانتها؟

أريدها أن تعود لتتوب وإلا انتقمت. لن أتركها تهرب بجريمتها.

هنا تكمن خطورة مثل هذه الحالات المرضية.. فكثير من جرائم القتل تحت مسمى دافع الشرف يموت مرتكبوها مرضى، وهو مرض كان يطلق عليه اسم الغيرة المرضية Morbid Jealousy وهو مسمى خاطئ لأن الأمر هنا تعدى حدود الغيرة، فالمريض يوجه اتهاماً صريحاً بالخيانة الكاملة، ولهذا فالمسمى الأفضل هو ضلالات الخيانة Delusions of Infidelity وصاحب هذا المرض لا تبدو عليه أي أعراض مرضية أخرى ولذا فقد يصدقه بعض الناس لأنه يبدو عاقلاً وقصته قد تكون محبوكة مقنعة، ولكنها ليست حقيقية. وهو لا يقتنع بأنه مريض ولذا يرفض العلاج وبذلك تكون الزوجة في وضع صعب جداً، فاستمرارها معه بدون علاج يعرضها للخطر، وإذا اقترحت العلاج فإنه يثور بعنف وتتأكد شكوكه بتآمرها مع عشيقها لاتهامه بالجنون. والمسئولية للجميع، وتحتاج إلى تضافر كل الأسرة، والمشكلة التي تبرز هنا هي أن أهله ونقصد بهم والديه أو أشقاءه قد يصدقون ضلالاته أو قد يهربون من المسئولية خوفاً منه، وتصبح الزوجة وحيدة في مواجهة هذه المشكلة الخطيرة والعلاج يحقق

نـــتائج إيجابـــية وســـريعة وذلك عن طريق عقاقير تصلح من شأن الخلل الكيميائي الذي أصاب المخ.

وقد نصادف رجلاً قد خانته زوجته فعلاً ويملك الدليل القاطع وعقله الســـليم.. والأمـــر هنا يختلف عن الحالة السابقة، فالحزن عميق. والحالة أقـــرب إلـــى الأسى، والأسى هو الحزن على شخص عزيز قد مات، إنه حـــزن الفقـــد أو حزن الموت، وتتساوى الخيانة بالموت أو هي أفظع من الموت، ولذلك فالخيانة قد تنتهي بالموت، أي أن عقابها يكون الموت.. وإذا كـــان الشـــرك بالله يفسد العلاقة بين الإنسان والسماء فإن الخيانة هي كل الفســـاد فـــي الأرض ولا فســـاد بعدهـــا، وأصلها- أي الخيانة- فساد في التركيـــبة الإنســـانية، تماماً مثل الطعام الفاسد الذي تتحلل مكوناته وتصبح ســـامة، وكما لا تستمر حياة مع طعام فاسد لا تستقيم حياة في ظل خيانة، فالخـــيانة إبطال فوري للحياة، ولذا فمن الصعب استمرار حياة بين طرفين بعد ثبوت خيانة أحدهما سواء كانا زوجين أو صديقين أو زميلي عمل.. قد يحـــاولان الاســـتمرار ولكنها تصبح علاقة يشوبها الشك والتوجس والقلق والغم والهم.

علاقـــة لا تشـــبع، علاقة توجع القلب وترفع ضغط الدم، لا بنسيان ولكن بتناسيان.. والتناسي غير النسيان، التناسي معناه زحزحة المشكلة من بـــؤرة الشعور المباشر.. ولكنها تظل قابعة في الظل حية ولكن أقل تأججاً وفـــي الوقـــت المناســـب تقفز للمقدمة وتعود للظهور أكثر اشتعالاً وأكثر إحـــراقاً. ولذا يظل الطرفان في حالة هروب مستمر كالذي ارتكب جريمة ويفلـــت مـــن تنفـــيذ الحكم ولكنه يظل طوال حياته هارباً مشرداً، وهو في الحقـــيقة هروب من النفس.. والهروب من النفس هو هروب مكشوف مثل

لعـــب الأطفال، ولذا فقد يلجآن إلى الخمر أو الأقراص المهدئة أو المقامرة أو الدخـــول فـــي مغامـــرات جديدة، أي مزيد من الانغماس في الوحل أو الســقوط صـــريعى المـــرض النفسي أو العقلي وهذا هو الحل الأسهل أو الأمـــثل. وتكون النهاية عند الطبيب النفسي والذي قد ينصـحهما بالانفصال ضد إرادتيهما، أو قد يجد مبرراً مرضياً للخيانة التي حدثت وهذا قد يكون حقيقياً في بعض الحالات.

سلسلة الأعمال الكاملة



- حصل علي بكالوريوس الطب والجراحة من كلية عين شمس عام ١٩٦٦.
- حصل علي دبلوم الأمراض الباطنية،
- دبلوم الأمراض العصبية والنفسية،
- حصل علي الدكتوراه في الطب النفسي عام ١٩٧٢.
- في عام ١٩٧٤ سافر إلي بريطانيا حيث حصل علي دبلوم الطب النفسي، ثم حصل علي عضوية الكلية الملكية للأطباء النفسيين وعين مستشار الطب النفسي في (جلاسكو) لمدة عامين.
- تدرج في الوظائف الجامعية حتي عين أستاذ للطب النفسي عام ١٩٨٢ بكلية طب جامعة عين شمس.
- منحته الجمعية الأمريكية للطب النفسي الزمالة الفخرية في عام ١٩٨٣ ليصبح الزميل رقم (٣٧) الذي يمنح هذه الشهـ[illegible] من غير الأمريكيين، وفي عام ١٩٨٤ منحته الكلية الملكية للأطباء النفسـ[illegible] لندن الزمالة الفخرية.
- له أكثر من مائة بحث في الطب النفسي منشور في المجـ[illegible] المصرية والعربية والعالمية.
- يتولي رئاسة تحرير مجلة الطب النفسي الحديث.
- سكرتير عام الجمعية المصرية ـ الفرنسية للطب النفسي.
- حصل في عام ١٩٩٠ علي جائزة الدولة لتبسيط العلوم.
- سكرتير عام اتحاد الأطباء النفسيين العرب.
- صدر له ٢٧ كتاباً.



مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع | ١٤٤ ش طيبة - سبورتنج - الإسكندرية
ت: ٥٩٣٠٥٩٨ تلفاكس: ٠٣/٥٩٢٢١٧١
محمول: ٠١٢/٣٢٩٣٦٣٨ - ٠١٢/١٠٣٢٥٣١

مؤسسة طيبة للنشر والتوزيع | ٧ ش علام حسين - الظاهر - القاهـ[illegible]
ت: ٧٨٦٧١٩٨ تلفاكس: ٦٨٢٦٧٤٦
محمول: ٠١٢/١٠٥٣٣٠٦ - ٠١٠/٦٢٤٢٦٢٢